

عادل حمودة

عشاق وقتلة فى حياتى!

عشاق وقتلة في حياتي

عشاق وقتلة فى حياتى

مقالات متنوعة للأستاذ عادل حمودة
تم نشرها بجريدة الأهرام - صباح السبت

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٣

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٢٠٥٠

الترقيم الدولى: 3 / 24 / 5930 / 977

تصميم الغلاف : شاهر وهبة
الجمع التصويرى: جى. سى. سنتر
الطباعة : إنتر برس



إدارة التسويق: ٣ شارع محمد أنيس - الزمالك
القاهرة ت: ٧٣٨٣٨٨٧ - ٠١٢/٢١٥٧٤٦١

عادل حمودة

عشاق وقتلة فى حياتى!



دار الفرسان للنشر

لا .. تنظر إلى الوراء .. فى غضب

فى قلب «أكتوبر» من كل عام أعود كالسفينة المتعبة لأريح جبينى على صدر هذا الوطن .. هو يوم واحد فى السنة .. يوم ولدت .. وتنفست واكتشفت أن غريزة الصراخ هى أقوى غرائزى .. وأن لعبة الحياة أكثر اثارة من لعبة الطائرات الورقية التى كنا نطلقها فى سماء الأسكندرية، وأن لعبة «العسكر والحرامية» هى لعبة حقيقة.

فى هذا اليوم أضع نفسى فى خيمة التأمل المنصوبة بعيداً .. وحيداً فى صحراء النفس الأنسانية .. أراجع الحروق التى أصابتنى وأنا أنكش بيدى فى ضوء النجوم وفى عش «الدبابير» .. أحدد موقعى على خريطة المغامرة فى بحار هائجة تمتلئ بالقراصنة وأسماك القرش الغاضبة .. أستريح من الدوار الذى سببه البحث عن الحقيقة فى زمن يكره الحقيقة .. أخرج بلادى من جفون الكلمات التى أكتبها .. فأجدد دائماً نقطة حبر تأخذ شكل دمعة العين.

قلب «أكتوبر» هذا العام جاء برقم الخمسين .. ٥٠ سنه .. رقم يستحق التوقف .. نكتبه بالأرقام والأوهام .. نكتبه بالأحساس وفى عيون الناس .. نعود به إلى الوراء ..

فى لحظة صفاء .. لنفتش فى المسافة المشتركة بين الشقاء والهناء.

فى طفولتى عرفت مصر من أقصاها إلى أقصاها .. من الأسكندرية إلى أسوان.. ومن الأسماعيلية إلى السلوم .. كنا ننتقل وراء عمل أب لا يعرف المساومة والحلول الوسط. فكان يعاقب على عناده فى الحق بالتشرد والنفى فى أماكن الوطن النائية.. لكنه لم يكن يشعر بالغربة .. ولا نحن أيضا .. فقد عرفت مبكراً أصدقاء فى لون القهوة فى «الحكروب» التى كانت أفقر منطقة فى أسوان .. وأصدقاء «برمائيين» على شواطئ الرمل والبحر كثيراً ما كنا نتعلم معاً كيف نستدعى جنيات المغارات المسحورة.. ونتسامر معها .. وأصدقاء كانوا لا يجرون وراء عربات الرش وانما وراء عربات بيع الكتب القديمة التى كان يجرها فى شوارع «العباسية» فى القاهرة.. شخص لا يقرأ ولا يكتب اسمه «رفاعى».

كان أبى قادراً على تحويل القسوة إلى نعمة .. واللعنة إلى رحمة .. وقد تعلمت منه كيف أواجه القبح بالمعرفة .. وكيف يعرف الإنسان أبعاد جسده من دخول السكاكين فى لحمه .. وكيف يتعلم من المواجهة أكثر مما يتعلم من المجاملة .. وكيف تهز كلمة حق واحدة جبالاً من الباطل .. فكلمة الحق تحدث «خلخة» فى تماسك الباطل وتكسر قشرته وتفتتها. ولأن الأشياء المكسورة تدافع عن نفسها بالصراخ والصخب فإن المعركة مع الباطل هى معركة ليست سهلة .. ولا هى نزهة فى يوم ربيعى مشمس .. هى معركة مستمرة تنتهى بنهاية الحياة .. ولكن على كل جيل أن يسلم السلاح الذى يقاتل به لمن يأتى بعده .. لتستمر المواجهة .. فالحق وهو الطرف الحاضر الغائب فى هذه المعركة ليس ابن السهولة ولا المصادفة وليس من الممكن أن تفوز به فى سحب لأوراق الحظ واليانصيب.

كان التعليم فى بيتنا قيمة .. والمساواة بين البنت والولد عادة يومية.. ولم يكن الأب من طراز «سى السيد» .. ولم يغضب يوم كتبت منشوراً علقته على باب حجرته نطالبه فيه أنا وأخوتى بزيادة «المصروف» لإضافة بند السينما لبرنامج أجازة نهاية الأسبوع .. لكنه غضب من ناظر المدرسة الأعدادية الذى ضربنى بمسطرة حادة على أصابعى عندما انتقدنا فى مجلة حائط هوايته المزمنة فى الأذية دون مبرر .. هل طفولتنا تطاردنا حتى آخر العمر. تحكم علينا وتحاكما حتى ونحن نصف أنفسنا بالخبرة وندعى الحكمة ..!!

كانت أمى لا تعرف الشكوى من ضغوط الحياة .. تصلى .. وتبتسم .. وتجيد التصرف .. هل منحها الله إلينا لنعرف كيف لا نمد رغباتنا إلى أشياء لا نقدر على امتلاكها ؟ .. هل كانت التعويذة التى علمتنا كيف نشعر بأن قيمة الأنسان فيما يعرف.. لا فيما يملك؟ .. فيما ينفع الناس لا فيما يتفاخر به بينهم؟ .. ولم أفهم إلا فيما بعد .. لماذا طلبت منى أن أحب جمال عبد الناصر وأؤمن به كما أشاء .. ولكن دون أن أسلم له عقلى وإراداتى. «لا انسان ياولدى لا يخطئ .. وعندما لا نواجه الإنسان مهما كان فيما يفعل فلا ذنب عليه إذا حولنا إلى كيانات ممسوخة.. لا جناح عليه إذا ما جعلنا نأخذ العزاء فى أنفسنا».

وجدتنى أمى استهلك كراسات مدرسية أكثر من أخوتى .. كنت ألخص فيها ما أقرأ وأكتب فيها خواطرى ويومياتى وقصصا خرافية لأبطال لا وجود لهم .. فلم تغضب ولم تتهمنى بأننى «أكل الورق» .. كما كانت تردد الأمهات عادة .. ووجدتها تدس فى يدى قروشاً فوق مصروفى بعد كل رحلة أمشى فيها سيراً على الأقدام من بيتنا فى العباسية إلى العتبة حيث سور الأزبكية وأعود منها مفلسا حاملاً روايات

سبق أن قرأها غيرى ليوسف أدريس ونجيب محفوظ وأحسان عبد القدوس واسكندر دوماس وتشارلس ديكنز. أما أول رواية جديدة أشتريتها فكانت «المقامر» للأديب الروسي الذى وقعت فى سحره .. تيدور دوستويفيسكى .. فقد كان ثمنها ٣ قروش بعد أن قرر السوفيت أن الطريق إلى عقل المثقفين المصريين يبدأ بالكتاب الرخيص.

وعندما وجدتنى أمى ذات مرة أحمل كتاب «إيران فوق بركان» لمحمد حسنين هيكل .. وضعت يدها على قلبها .. قالت لأبى: «لقد عاد الولد إلى جنونه الذى شفاه الله منه» .. كانت تقصد بهذا الجنون «الذى شفانى الله منه» رغبتى التى لا تخمد فى اكتشاف الأشياء بنفسى وأنا طفل صغير .. فقد وضعت يدى فى الكهرباء لأعرف كيف يكون الموت بالارتعاش .. وقفزت من سور مرتفع لأشعر بقوة ارتطام الجسم البشرى بشئ صلب .. وخطفت من جارة لنا قبلة لأعرف حل وطعم هذا اللغز الأبدى بين الرجل والمرأة والذى نعتقد أنه لعبة الكبار فقط وأن الأطفال لا يشعرون به.

كانت السياسة هى الخوف الذى تكون تحت جلد الطبقة الوسطى بعد ثورة يوليو.. والوحش الذى يخطف أجمل الزهور فى الفجر .. ليحملها وراء الشمس .. ويفترسها بعيداً فى الصحراء الموحشة .. كانت العيون ـ لا الشفاه ـ هى التى تخبرنا باختفاء أحد الجيران وهو يحفظ دروسه الجامعية .. فعرفت مبكراً الفرق بين الشيوعى والاخوانى .. لكنى عرفت مبكراً أيضا معنى الكرامة الوطنية فى وقت كانت فيه القاهرة العاصمة الثالثة ـ التى ينتظر العالم رد فعلها على الأحداث ـ بعد موسكو وواشنطن.

كانت مصر فى ذلك الوقت هى أرض الانفعال والتوتر .. ولا يمكن لأى انسان يعيش فيها أو يمر بها أن يبقى محايداً .. الحياد هو الموات والانسحاب . ومن ثم كان

لابد من البشر أن يكونوا طرفا فى اللعبة .. لعبة السياسة المثيرة .. فكان أن وجدت نفسى متحمسا لدخول منظمة الشباب .. ورحنا فى معسكرات حلوان فى القاهرة وأبى قير فى الأسكندرية ندرس حتمية التحول الاشتراكى .. وفيما بعد وجدت الذين كانوا يصرون على هذه الحتمية هم أنفسهم الذين ينفذون سياسة الخصخصة بعد أن أصبحوا وزراء .. فالبقاء فى مصر للبيروقراطية .. والخلود لها . لا للاشتراكية .. ولا للرأسمالية.

ورحنا بحماس الحتمية الاشتراكية نكنس الشوارع وننظم الأسواق الفقيرة ونساعد الناس فى حل متاعبهم .. لا كتبنا تقارير فى أقرب البشر الينا .. ولا كانت المنظمة جهازاً من المخبرين ينافس جهاز مباحث أمن الدولة كما قيل فيما بعد .. كنا آخر جيل تعلم السياسة فوق الأرض.. وبعد أن أصبحت السياسة جريمة علنية .. بدأ الذين يهوونها من الشباب ينزلون تحت الأرض .. وعندما كانوا يصعدون للسطح مرة أخرى كان بصحبتهم «وحش» مسكون بالعنف والتهور اسمه الارهاب.

لم أكن أحلم بالكتابة أو الصحافة .. كنت أحلم بالسياسة .. كانت الطرق مفتوحة أمام الشباب لأن يحكموا .. ويديروا .. ويوجهوا .. ويغيروا.. وهو أمر متوقع .. فالذين جاءوا للسلطة منذ يوليو ١٩٥٢ هم فى غالبتهم من نفس الطبقة التى ننتمى إليها .. ويحملون نفس الأحلام التى نحلم بها .. فلماذا لا نشاركهم فى السلطة والحكم؟ .. إن هذا الحلم كان متاحاً فى ذلك الوقت .. وقد كانت الخطوة الأولى فى الطريق إليه هى دخول كلية الاقتصاد والعلوم السياسية التى أصبحت بديلا لكلية الحقوق فى تخريج الوزراء الذين كانت صورتهم فى أذهاننا صورة خرافية خيالية بعيدة عن كل ما وجدناه فيما بعد.

في صيف ١٩٦٧ داهمني الحزن للمرة الأولى .. لم أكن قد التقيت بطائر الحزن من قبل .. ولا سمحت له أن ينقر رأسي أو يعشش في قلبي أو يشاركني حجرتي وفراشي .. لكن الهزيمة التي كانت زلزالا تحتنا وصاعقة فوقنا وعاصفة حولنا في وقت واحد سمحت للحزن أن يولد .. وسمحت للون الأصفر ـ لون الشحوب ـ أن يسيطر .. ووجدنا أنفسنا في مقبرة من الملح والكوابيس. كنا على عتبة الرجولة والجامعة.. كنا على موعد مع القدر كما كانوا يصفون جيلنا .. فإذا بنا على موعد النفس المكسورة .. غير القابلة للجبيرة .. والقلب الممزق .. غير القابل للترقيع .. ووجدنا كل الكبار حولنا في حالة مرض وهذيان .. وراح الجميع يجلد نفسه علنا .. ويمزق جلده بقطع الزجاج الحاد .. ولم يجد الصغار سوى قصائد الشعر المعارضة يضع همه فيها .. كان خروجنا من هذا الحصار خروجا شعريا .. فرحنا ننسخ قصيدة نزار قباني «هوامش على دفتر النكسة» ونوزعها سراً .. كانت القصيدة كما قال صاحبها فيما بعد .. تحاول أن تصرخ في وجه القبائل العربية التي تذبح بعضها وتشرب دم بعضها .. وتحاول أن تقتل الوحش الذي استوطن كل المدن العربية وقص أنيابه قبل أن يفترس كل شئ.

والغريب أن الشرطة السرية كانت تقبض على كل طالب في الجامعة يضع بين كتبه وكشاكيل محاضراته نسخة من القصيدة .. وكانت هناك قضية أمن دولة جاهزة له .. وهو ما جعلنا نحفظ القصيدة ولا نكتبها .. وكان خلل بكل المقاييس .. فقد صدر قرار بمنع نزار قباني وقصائده وأشعاره ودواوينه من دخول مصر .. وأرسل الشاعر ـ الذي حوله الوطن من شاعر الحنين إلى شاعر يكتب بالسكين ـ إلى جمال عبد الناصر رسالة يشرح له فيها موقفه حملها إليه محمد حسنين هيكل.. فكان أن أفرجوا عن شعره .. وفتحوا له أبواب مصر .. وكسر جمال عبد الناصر

«بموقفه الكبير جدار الخوف القائم بين الابداع والسلطة» .. وكشف برؤيته الشاملة «أن الفن والثورة توءم ملتصق وحصانان يجران عربة واحدة وأن كل محاولة لفصلهما ستحطم العربة وتقتل الحصانين» .. لكن.. رغم ذلك كله .. ظلت القصيدة من محظورات أمن الدولة.

شعرت بعد يونيو ١٩٦٧ بأننا كنا قططاً أليفة .. أو كنا من فصيلة الدواجن .. أو كنا في غيبوبة من السحر والشعوذة في مغارات يسكنها الدراويش والخفافيش .. وجاءت اللطمة الأشد .. مظاهرات الجامعة في فبراير ١٩٦٨ .. كانت الأحكام الهزيلة التي صدرت ضد المتسببين في الهزيمة هي الشرارة .. لقد تجاهل النظام السياسي مشاعر الناس .. وأخرجهم من حساباته .. فكان من الطبيعي أن تحدث الانفجارات والمظاهرات.. وهي أول احتجاج شعبي في الشارع ضد جمال عبد الناصر منذ يوليو ١٩٥٢ وهو حدث تاريخي بكل المقاييس .. لكن النظام لم يتعلم وراح يستوعب الغضب بمسكنات ظاهرية.. ثبت فيما بعد أنها وهيمة.

في ذلك الوقت عرفت قيمة الحرية .. عرفت أن في الحياة مذهباً سياسياً أهم هو الليبرالية .. فرحت أفتش عنها في الكتب والسفر والفن والأدب .. وأمنت بأن من الصعب على من يؤمن بالحرية أن يسلم إرادته دون قيد أو شرط لأي نظام سياسي مهما كانت الشعارات براقة.. والفترينات لامعة .. وعناوين الصحف صاخبة .. ونشرات الأخبار في التليفزيون مطمئنة .. لا أحد يؤمن بالحرية يختار الحكومة .. حتى ولو كانت في قمتها كما كنا نحلم .. بل عليه أن يختار وسيلة مباشرة للتعبير عن الناس .. تكسر الجلد السميك الذي يفرضه أصحاب المصالح ليفصل بين الحاكم والمحكومين .. بين السلطة والشعب .. وهكذا شعرت أن الكتابة تمنح جواز المرور

إلى هذا العالم .. لقد هجرت السياسة وبدأت أغازل الصحافة .. لكن .. هذا الانقلاب الحاد فى حياتى جرى بعد تحول بطئ عشته فى رحلة إلى أوروبا فى صيف ١٩٦٨ بحثا عن عالم آخر .. وتصورات أخرى للحياة .. رأيت لندن القادرة على أن تعبر عن غضبها من السلطة علنا فى الشوارع والحدائق .. ورأيت وارسو التى لم تجد سوى فن الباليه الناعم لتعبر به رمزاً عن قسوة الحكم البوليسى .. ورأيت باريس وهى تحتضن كل هارب من مطاردة الكلاب البوليسة فى بلاده .. وعندما عدت إلى القاهرة كان الأمر قد حسم .. لا للحكومة .. نعم للحرية .. لا للسياسة .. نعم للصحافة .. للكتابة .. ورحت أفتش عن مكان أعبر فيه عما فى نفسى وأعبر فيه عن جيلى الذى خرج من أفران النار التى أشعلتها الهزيمة .. ونشرت أول مقال لى فى ١٥ أكتوبر ١٩٦٩ .. وهو يوم ميلادى .. فكانت الولادة الثانية .. وهى قصة أخرى.

أما هذه القصة الأخرى فهى قصتى مع عشرات الشخصيات اللامعة التى مرت بحياتى .. إما بالمواجهة .. أو بالمتابعة .. وقد وجدتنى التقط لهذه الشخصيات صوراً بعدسة مقربة فى لحظة خاصة .. لكنها لحظة تكشف كل ما فيها وتلخص كل ما مر بها .. ومن ثم فإن هذا الكتاب هو فى الحقيقة ليس كتاباً عن شخصيات شهيرة عرفتها أو تابعتها وإنما هو ألبوم صور نادرة لها.

عادل حمودة

١ التانجو الأخير فى الخرطوم

لا سر فى بيروت.

إن هذه المدينة التى تعيش فى «محارة» وتقاتل معارك غيرها.. تعشق الترف والسهر والضوء والمشاهير والماركات .. والنميمة.

فى كل مكان ذهبت اليه كانت تطاردنى سيرة كارلوس.. فى «الروشة» حيث كان يسكن.. فى «جونية» حيث كان يعربد .. فى «الحمراء» حيث كان يأكل .. فى «الرملة البيضاء» حيث تعلم استخدام المتفجرات، ، وأطلاق الرصاص، وطرق التخفى، وفن التعامل مع الرهائن على ارتفاع ٣٠ ألف قدم فى طائرة مخطوفة.

إن أسطورة كارلوس ولدت هنا.. فى بيروت.. فى سنة ١٩٧١ .. فى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.. على يد د. وديع حداد الرجل الثانى فى الجبهة بعد د. جورج حبش.. إن وديع حداد كان رجلا من طراز خاص.. فريد ،كانت ذاكرته تستوعب مواعيد إقلاع وهبوط الطائرات.. وتستوعب مذكرة قانونية فى ثانية.. وكان موهوبا فى التنكر.. ومجنونا بالسرية.. وقد نجح ذات مرة فى إقناع الدنيا بأنه

قتل فى إحدى العمليات ومشى بنفسه فى جنازته التى اخترقت شوارع بغداد دون ان يعرفه أقرب الناس إليه.

وقد كبرت الأسطورة وتوسعت وانفجرت حتى أصبح كارلوس قوة خرافية.. غير مرئية.. مثل البرق والرعد .. مثل «سوبرمان».. يخطف كتيبة مسلحة من الكوماندوز ويهرب فى وضح النهار.. يجرى فوق قطارات مسرعة ليسابق الريح.. يخرج من الاكمنة كالشعرة من العجين.. يدخل الدول من ثقب الباب.. ويخرج منها من تحت الباب.. يذوب متنكرا فى ذرات الهواء.. ينقض على خصومه كالقضاء والقدر.. وفى آخر الليل ينام فى طائرة مخطوفة مع امرأة ملهوفة.

لكن الاسطورة انتهت نهاية ساذجة.. بلهاء.. خرساء.. لا تناسب الصورة الغامضة.. الغاطسة التى رسمت لصاحبها.. فقد شحنوه من الخرطوم الى باريس مثل شوال «تبن» أو علبة «سردين».. مخدراً فى تابوت كتبوا عليه بكل اللغات: «انتهت مدة صلاحيته».. وهو الآن فى الزنزانة رقم ٢٥٨١٨٧ ب فى سجن «لاسنتيه» الفرنسى يحاول – بعد فوات الأوان – اجترار ما حدث.. مستوعبا حكمة الذين عاشوا فى خطر .. «الغلطة الأولى هى الغلطة الأخيرة».

إن ما حدث بالضبط لا يزال سرا من الأسرار العليا... الخفية.. وقد جمعتنى القهوة والدردشة والعلاقة المتينة بمسئول سورى مهم فى بيته فى دمشق... وكان كارلوس – الذى يعرفه جيدا بحكم الصداقة – هو الحاضر الغائب.. كان ثالثنا.. وأذهلنى ماسمعت.. إنها الحقيقة من أحد مصادرها.

لقد ورث كارلوس أو ايليتش رامبريز سانشيز عن أبيه المحامى الثرى فى كراكاس – عاصمة فنزويلا – عشق الماركسية والويسكى بالصودا والنساء وفنادق الخمس نجوم.. عشق الصالونات والحانات، اندفع الإبن فى طريق المغامرات والمؤامرات.. وكان الشرق الأوسط ملعبه الرئيسى.. حيث النبوءات والمعجزات والمخابرات.. وحيث

يخاف الناس من الأصدقاء أكثر من الأعداء.

أرسله ابوه للدراسة فى جامعة «لومومبا» السوفيتية لكنه تورط فى علاقة مع رفيقه كوبيه هى سونيا أوريولا حملت منه.. فطردوهما معا.. وعادت سونيا الى هافانا لتضع طفلة لم يرها ابداً.. أما هو فقد انضم إلى الجبهة الشعبية بترشيح من زميل دراسه فى موسكو هو محمد بوضيا الذى وضع فى يده رسالة إلى غسان كنفانى فى مجلة «الهدف» المعبرة عن الجبهة على عنوانها فى بيروت.. ومن غسان كنفانى حمل رسالة إلى بسام ابو شريف. مسئول الاعلام فى الجبهة – وكان فى الأردن يقاتل مع الفصائل الفلسطينية معاركهم الشهيرة فى احداث سبتمبر ١٩٧٠ المعروفة بأحداث آيلول الأسود.

فى أغوار الأردن تعلم كارلوس فنون القتال على يد الفلسطينيين.. لكنه لم ينفذ اولى عملياته إلا فى عام ١٩٧٣ حين اطلق النار على رجل الأعمال اليهودى الإنجليزى جوزيف ادوارد سيف الذى تكفلت اسرته بحاييم وايزمان فى مانشستر يوم كان يروج للدولة الصهيونية هناك. وقد فشلت المحاولة ونجا جوزيف سيف – برغم اصابته فى اسنانه – من الموت .. لكن الجرأة التى نفذ بها كارلوس العملية وضعته فى مصاف المحترفين.. وجعلته ينفذ بعد عامين اكبر عملية فى حياته.

فى صباح يوم الاحد ٢٢ ديسمبر ١٩٧٥ كان ١١ وزيرا للنفط يجتمعون فى مقر منظمة الأوبيك فى ١٠ شارع «كارل لوجر وينج» فى العاصمة النمساوية فيينا.. وبعد نصف ساعة من بدء الاجتماع دخل خمسة رجال وامرأة يرتدون معاطف طويلة ويحملون حقائب رياضية.. وكان يقودهم رجل ذو شارب ولحية صغيرة، فى سترة جلدية ، بنية، وقبعة عالية، وسروال فضفاض... هو كارلوس الذى سيطر على القاعة فى دقائق وأخذ كل من فيها رهائن.

كانت مطالبة التى ابلغها للنمساويين من خلال وسيط عراقى.. هى تجهيز

طائرة تقله والرهائن إلى أى مكان فى العالم.. وقال أنه اقدم على هذه العملية «لمجابهة مخطط رفيع المستوى يهدف إلى اقرار الوجود الصهيونى فى فلسطين».. واضاف: أنه ينوى ضرب مؤيدى هذه المؤامرة وإبطالها.

وأصر كارلوس على قراءة رسالة من سبع صفحات فى الإذاعة النمساوية قبل أن يستجيبوا لمطالبة ويسمحوا له بطائرة تحمله هو الرهائن إلى الجزائر.. وفى الجزائر أصر الرئيس هوارى بومدين على تسليم الرهائن احياء فانتهت العملية.. وخرج منها كارلوس بثلاثة ملايين دولار.. دفعها العراق..

بعد خمس سنوات أخرى قررت احدى دول الرفض العربية اغتيال أنور السادات قبل توقيع معاهدة «كامب ديفيد» ورصدت للعملية ١٢ مليون دولار واختارت كارلوس لتنفيذها اثناء زيارة السادات الى النمسا ودفعت عربونا مليونى دولار نقدا.. لكن المفاجأة أن ياسر عرفات عرف بالعملية وكشفها للمستشار النمساوى برونوكرايسكى الذى اختار قناة غير رسمية هى د. على السمان لتوصيل المعلومات للقاهرة.. والغيت زيارة السادات للنمسا وسالزبورج.

بعد ١٥ سنة على هذه الواقعة تغيرت الدنيا.. وتغيرت المواقف.. أصيبت المقاومة بالسكتة واندفع العرب لركوب قطار التفاوض مع اسرائيل.. واصبح كارلوس الذى كان يقود العنف فى نصف العالم على الأقل - عبئا على اصدقائه فى الشرق الأوسط.. وبسقوط النظام الشيوعى لم يعد للأسد العجوز مأوى.. وراحوا يزيحونه من كل العواصم التى كانت تستقبله استقبال الرؤساء والثوار.. برلين، بوخارست، براغ، وارسو، بغداد، بيروت، عدن، وعمان.. واستقبلته الخرطوم بصفقة.. وباعته بصفقة.

اشترى اقامته فى الخرطوم مهندس التطرف فى افغانستان والسودان اسامة بن لادن وقبض الوكيل المحلى حسن الترابى الثمن.. وجاء كارلوس معتزلا، محبطا،

مجمدا، لم يعد له سوى النساء والويسكي وفنادق الفايف ستارز كانت معه آخر زوجاته .. لانا عبد السلام أدهم. وهي فتاة صغيرة، تحت العشرين، من عائلة ثرية تحمل الجنسية الأردنية، تخرجت طبيبة اسنان.. اشترت احلامه المسروقة بالحب المسلوق.. أما هو فقد عوض حماقاته السياسية بحماقاته الجنسية.. وتصور أن الهروب إلى النشوة يجعله يكسر جميع انواع الزجاج التى ركبوها حوله. وجميع البلاغات الرسمية الأمنية التى وزعوا فيها صورته.

لكنه لم يغادر عمان الا بعد أن اطمأن على سفر زوجته ماجدالينا وابنته البيتا الى فنزويلا.. إن ماجدالينا هى سبب الثأر الساخن بينه وبين المخابرات الفرنسية.. لقد اعتقلها الفرنسيون فأعلن كارلوس الحرب عليهم.. وراح يفجر ويدمر ويقتل بجنون ليفرجوا عنها.. إن المرأة لا الثورة هى السبب هذه المرة.. لقد جعله جنونه بها وجنوحه اليها يفرض على الفرنسيين رقصة التانجو الدموية على انغام الرصاص والبارود وصراخ الضحايا.

فى الخرطوم حمل جواز سفر باسم الدكتور عبد الله بركات واقام فى فندق هيلتون المطل على النيل .. وفى حى العمارات وهو حى الارستقراطية السودانية والسفارات الأجنبيه.. كان على بعد ٩٠ مترا فقط من بيت السفير الفرنسى الذى كان يريده حيا أو ميتا.

غرق فى الخمر التى كان يحتسيها فى النادى الوحيد الذى يقدمها.. النادى الدبلوماسي وهناك عرف اجمل امرأة في حياته.. انها امرأة الشطة والشيكولاته.. عقد من اللؤلؤ الأسود.. بحر من الكحل، ينبع من عينيها ويصب فى قلبه. يقال ان أسمها زينب المهدى.. والمؤكد انها كانت عميلة المخابرات السودانية وكان عليها رصد تحركاته وكلماته وانفاسه.. واستمرت اكثر من عامين تقدم تقريرا يوميا عنه.. ولكنهم لم يكونوا فى حاجة الى هذه التقارير.. فقد كانوا يعرفون كل ما يفعله أول بأول بالصوت والصورة.

وضعت نسخة من تقارير الفيديو عن كارلوس فى خزانة حسن الترابى السرية التى لم يفتحها الا عندما بدأت المفاوضات الخفية بينه وبين فيليب روندوا مسئول المخابرات الفرنسية.. كانت المخابرات الفرنسية تثق فى الفوز.. فحسن الترابى هو الرجل القوى الذى يحرك النظام السودانى من وراء الستار.. وهو «فرانكفونى» الهوى حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة «السوربون».. وهو شخص «برجماتى».. يتحرك نحو مصالحة برغم أنه لا يكف عن ادعاء التقوى.. ولا يكف عن الظهور بمظهر المتشدد دينيا.. ثم .. أن العرض الفرنسى يتسم بالإغراء والإغواء.. حوالى ٢٠٠ مليون فرنك فرنسى ـ نقدا.. تتحول الى دولارات.. بالإضافة إلى تسليم السودان «صورا من خرائط خطوط دفاع قوات جون جارنج فى الجنوب. والسماح للقوات السودانية بالمرور عبر اراضى «افريقيا الوسطى» لتطويق قوات جون جارنج فى الجنوب.. وعد الفرنسيون بتقديم ضمانات مالية للسودان لشراء مواد تموينية.. ووعدوا بعودة شركة «توتال» الفرنسية للتنقيب عن النفط.

وفى المفاوضات عرض الترابى تسليم أبو نضال بدلا من كارلوس.. لكن.. المخابرات الفرنسية اصرت على كارلوس.. فهى تريده بأى ثمن لتسديد فاتورة قديمة تتعلق بشرفها الذى داسه كارلوس.. وبسمعتها التى لطخها فى حرب شرسة أنست الفرنسيين حربهم المؤلمة فى الجزائر.

إن الترابى باع للناس الشريعة الإسلامية دون أن ينسى غبار الجاهلية.. وطالب الناس بالسلطة الأبدية دون أن يكف عن عقد الصفقات التجارية.. والمخابراتية.. وحاول قلب الابجدية السياسية فاذا به لا يلعب سوى لعبة العسكر والحرامية.

لقد انتهك كل قواعد التقوى.. تجسس وتنصت وخان العهد وغدر بمن وعده بالاطمئنان والأمان .. وقبض الثمن.. وفى يولية ١٩٩٤ كان موعد اتمام الصفقة.. ووضع السيناريو الأخير.. وكان العشاء الأخير.. لكارلوس.. فى منتصف ليلة الأحد

١٤ أغسطس ١٩٩٤ .. فقد خرج من بيته فى الخرطوم ولم يعد اليه.

فى لياليه الأخيرة كان كارلوس يشعر بأن الهواء من حوله ثقيل وانه محاصر ومراقب.. فكان يقتل الوقت والملل والوحدة بالفرجة على افلام الفيديو التى كان يستأجرها من محل اسمه «شدياق».. وكان المطلوب أن يخرج من بيته لتكون عملية اختطاف وشحنه الى فرنسا عملية بسيطة هادئة.. وتقول الرواية الشائعة إن الأطباء فى مستشفى «ابن خلدون» اقنعوه باجراء جراحة عاجلة للفتق الذى يعانى منه.. وانه استجاب لذلك، فحملته سيارة اسعاف لم تتجه إلى المستشفى وانما اتجهت الى المطار حيث خدروه ونقلوه فى طائرة خاصة لباريس.. لكن.. صديقى المسئول السورى الذى يعرف حقيقة ما جرى ينفى هذه الرواية ويفجر قنبلة من النوع الثقيل.

إن عشيقته السودانية الحلوة والحارة اقنعته بالزواج منها حتى لا يرجما هو وهى فى هذا النظام المتشدد.. انها خطة الترابى.. استخدام الدين فى رسم هذا السيناريو اللاأخلاقى.. فقد تركوها طويلا بين احضانه فى فراشه دون أن يتذكروا الخطيئة أو الشريعة.. وقد تذكروها الآن لمزيد من سوء الاستعمال.. فجاء عرض الزواج بدعوى الخوف من الله ومراعاة حدودة.. ووافق كارلوس.. فلم يعد له سوى هذه الفتاة .. اصبحت بالنسبة له الدنيا والأخرة.. الوجود والفناء.. اصبحت الملاذ الأخير فى عالم صارت فيه الكلمات لكمات.. ومؤامرة ولعنات واجهزة مخابرات.. لكن.. كان لعروسة المخابرات السودانية شرطا آخر غير اشهار اسلامه.. هو أن يقوم بعملية «ختان». وبرغم سخرية كارلوس من الطلب فإنه لم يجد مبرراً لرفضه. خاصة انهم وعدوه أن تكون العملية سرية.. فى جناح بعيد فى المستشفى العسكرى بالخرطوم.. وفى صباح يوم العملية.. عملية الختان وعملية الاختطاف.. دخل كارلوس المستشفى.. وخدروه.. ثم .. نقلوه فاقد الوعى مكبلا، حزينا إلى باريس.. ليصبح من جديد حديث الدنيا كلها، وبينما كان يجرى ذلك كانت هناك فتاة حلوة

وحارة تجمع بين الشطة والشيكولاته تبكى بحرقة وفى صمت.. لقد احبته بعد أن عرفت حقيقته.. وندمت بعد أن اجبروها على الإيقاع به!

وفى مثل هذه العمليات توجد ضحية أخرى يجب التخلص منها لأنها تعرف أكثر من اللازم.. وقد جاءت التعليمات من فوق: أخفوها.. وكان على رجال غامضين من نفس جنسها تنفيذ الأمر.. وهو ما كان.

وبينما كان جورج حبش زعيم الجبهة القومية يدعو الفصائل الفلسطينية للعودة للنضال والتوحد فى مناسبة مرور نصف قرن على اغتصاب فلسطين، وانهيار الكرامة العربية مؤكدا أن اسرائيل لا تفهم سوى لغة واحدة هى لغة القوة، أدرك أنه يقول عبارة شهيرة لرجل قاتل لجانب العرب وباعه العرب على طريقة يهوذا وتلقى منهم جزاء سنمار.. هو ايلتيش رامبرى سانشيز وشهرته كارلوس، واسمه الأخير كان عبدالله.

٢ الحب فى الثمانين *

فى البدء كانت الكلمة ...

خلقها الله شجرة قبل أن يخترع الخضرة .. خلقها نجمة قبل أن يولد الضوء ليبدد العتمة .. وخلقها سحابة قبل أن ينهمر المطر .

فى البدء كانت الكلمة ...

عرفها الإنسان جسرا للاتصال قبل أن يعرف المطبعة والصحيفة والقصيدة .. واجه بها الصمت قبل أن يعرف الصخب .. واستخدمها للاحتجاج على غياب العدل .. وسحق الحرية .. وسوء توزيع الثروة .. وعبر بها عن عصافير الحب التى تنقر قلبه وتحلم بتأشيرة سفر من صدره .. لتطير وتطير حتى يغلبها النعاس والتعب فتنام فى فندق خمس نجوم اسمه «عيون المحبوب» .

فى البدء كانت الكلمة ...

إن كلمة «المساواة» فتحت سجون العنصرية ليقضى فيها نيلسون مانديلا ٢٨ عاماً بعيداً عن النور .. وكلمة «الصبر» جعلته زعيماً يحتل ضمائر البشر وينحنى له

العالم دون أن يراه .. وكلمة «الكفاح» قلبت حياة «البيض» فى جنوب إفريقيا إلى جحيم لا يطاق .. وكلمة «الديمقراطية» توجت مشواره بحكم بلاده .. وكلمة «المغفرة» وضعت جداراً سميكاً من العزلة والألم والفراق والبعاد بينه وبين حب الأيام الخضراء .. زوجته «وينى» التى شاركته العشق والثورة .. وكلمة «طلاق» ألقت كل منهما فى طريق .. وكلمة «الحب» فتحت قلبه من جديد وهو فى الثمانين من عمره لشحنات النبض والاضطراب فى حضرة امرأة من طرازه .. هى جراسا ميتشيل أرملة رئيس موزمبيق السابق الذى قتل فى حادث سقوط طائرة .

لقد استسلم مانديلا للمعجزة الكبرى .. معجزة الحب فى الثمانين.. احتضن زوبعة العبير التى هلت عليه دفئاً .. إنها «جراسا» التى انشقت عنها السماء فضربت مثل الطوفان شطآن حياته .. وألقت به فى جزيرة من الدهشة يحاصرها البحر من جميع الجهات.. إن الدهشة هى التى تؤكد الحب والفرح لرجل فى عمر مانديلا .. هى قطرات الندى التى تجعل ساعات العشق تدق من جديد .. وتجعل الخريف يعود ربيعاً .. والحيوية تمتد إلى عمر الشيخوخة .. وتجعل فصول الإنسان تتغير .. فيأتى الحر فى يناير.. وتتفجر الزهور بالألوان فى عز نوفمبر .

ولا جدال فى أن الحب الذى كان يفتقده مانديلا منحه الحماس لتجديد الحياة .. ولم تكن مفاجأة أن يبادر بإعلانه بهذه الشجاعة.. فالرجل الذى تحدى العنصرية والقسوة ومرارة الوحدة فى ليالى السجن الطويلة ليس من الصعب أن يخرج للعالم ويقول «إنه يحب».. والرجل الذى قدم كل ما يملك لوطنه حتى استرد هذا الوطن نفسه، من حقه أن يعشق ويرقص ويقفز فى الهواء ويرتدى القمصان المشجرة ويتزوج ويهنأ ويهدأ .. ولا يمكن أن نحاسبه أو نعامله كدون جوان يلعب فى الوقت الضائع .

إنه رجل يحب .. وليس أروع من متابعة قصة حب عظيمة .. ولاسيما إذا كان

بطلها إفريقياً .. رومانسياً .. مثل مانديلا .. كانت بلاده العشق الأكبر في حياته .. والأنثى الخالدة التي تربعت في قلبه .. إن حبه لوطنه جعله لا يخجل من حب امرأة .. ثم .. إن الشجرة لا تخجل من ثمارها .. والسماء لا تخجل من بريق نجماتها .. والعيون المسكونة بالليل لا تخجل من لمعانها .. فلماذا يخجل مانديلا من عواطفه !

وقد رفض مانديلا أن يصدر بياناً عن القصر الرئاسي في جنوب إفريقيا يقول: إن الرئيس لا يحب .

وقال لماذا نكذب والرئيس يحب!.

قالوا: ولكن .. الخصوم السياسيين قد يستغلون القصة في التشهير!.

قال: أنا رجل أحب .. وسأتزوج من أحب .. ولست «بلاى بوى» يلعب بذيله أو يتحرش جنسياً بسكرتيراته .. فيستدعيه «بوليس الآداب» لأخذ أقواله .. لا تطردوا الربيع من قلبي .. ولا من قصر الحكم .

وفيما بعد صدر البيان الرئاسي الرسمي ليقول: إن الرئيس يحب .. وإن الحب سيتوج بالزواج .. وإن مهر العروس سيكون «٦٠ ثوراً» قوياً .. جريا على عادة القبائل الإفريقية .. ومنها قبيلة خوسا التي تنتمي إليها العروس جراسا ميتشيل .

لقد رفض مانديلا الكذب السياسي .. والكذب العاطفي .. ورفض «مسرح العرائس» الذي يقيمه مسئولو البروتوكول والتشريفات والعلاقات العامة .

ويقول مانديلا إنه كان يتذكر جراسا في الفجر والطرقات مغسولة بالمطر فيخرج ليتمشى بعيداً عن الحراسة الخاصة بين الأشجار ويلتقط أوراقها .. منتهى البراءة والطفولة والشاعرية .

ويقول أيضاً إن الارتباط بامرأة يعني ولادة جديدة للدنيا .. وحياة الرجل الخالية

من الحب .. هى حياة ملح وإسفنج .. تعطل فيها الأجهزة العصبية .. وتلغى منها الحواس الخمس .

ويقول كذلك: إن «البيض» جاءوا إليه ذات ليلة كفوج من الذئاب الجائعة ليسرقوا حريته وليخصموا من عمره ٢٨ سنة قضاها فى الأسر . كانت أحلى السنوات .. لكنهم .. اعتقلوا جسده ولم يعتقلوا قلبه .. ظل قلبه فى نفس عمره نفس يوم دخل السجن فى صيف ١٩٦٢ .. وعندما خرج من السجن وجده لا يزال صالحاً للحب .. وبعنفوان .. فطرد الأحزان .. وراح يحلم بفرط الرمان .. وعاد يتأمل ضوء القمر فى ليالى السهر .

أما أشد أحزانه فكانت صدمته فى زوجته وأم ابنتيه .. «وينى» .. لقد أحبها فى عام ١٩٥٦ وهو محام يدافع عن الناس قبل أن يصبح محامياً يدافع عن وطنه .. وقد كانت مثل ماسة سوداء .. وهو ما جعله يكتب فيها شعراً وإن لم يعد يتذكره .. ولكنه يتذكر أنه ترجم أبياته إلى وردة حمراء جميلة من الغابات البرية كان يحملها لها كل يوم طوال أربع سنوات تزوجا بعدها .. وعندما دخل السجن مدى الحياة كان يكتب لها خطابات رومانسية ناعمة يفتقدها فيها ويفتقد الشمس التى انطفأت .. والقمر الغائب عن زنزانته .. والمذهل أن السلطة العنصرية التى كانت تراقب خطاباته لم تكن تسمح بتوصيلها إلى زوجته .. فرجل بهذه المشاعر وهو فى السجن هو رجل شديد البأس .. وشديد الخطورة .. ولابد من كسره .. وتحطيم معنوياته .. وقد فشلوا فى ذلك .

وواصلت «وينى» مشوار الدم والنار الذى بدأه مانديلا .. ونجحت كثيراً لسنوات طويلة .. ولكنها لم تستطع الاستمرار فى الاحتمال .. ضعفت .. اهتزت .. اضطربت .. انكسرت .. خانها جسدها .. فوجدت نفسها فى حياة رجل آخر .. تبادلت معه المشاعر والعواطف والخطابات الحارة .. وتمادت أكثر .. وأكثر إلى ما هو أبعد .. والأخطر أنها انشرخت وانقسمت بين رجل هو رمز لأمة حتى ولو كان

فى السجن .. ورجل آخر قريب إلى أنفاسها لم يحترم وطنه وهو فى أصعب أيامه .. ولعل هذا الفصام هو ما جعل «وينى» تتجاوز حدودها وتتصرف من رأسها بعيداً عما يقوله مانديلا .. فاتهمت بجرائم قتل واختطاف بعض الخونة من أبناء جنسها الذين تعاملوا مع السلطة البيضاء التى استغلتها لمصلحتها وضد مانديلا .. وقد كشفت هذه الجرائم أقرب الصديقات لها .. مساعدتها «زوليسوا فيلانى» التى شهدت ضدها فى المحاكمة .. وأرسلت بخطاباتها الغرامية إلى مانديلا وكان لا يزال فى السجن .. وفى لقاء فى السجن بين مانديلا وزوجته تبادلا نظرات مبهمة فيها الأسى والأسف .. ولم يجدا مبرراً للاعتذار والعتاب .. واتفقا على الطلاق .. وعندما خرج مانديلا من السجن منتصراً لم يكن أحد يعرف أنه كان مهزوماً فى قلبه .. مطعوناً من المرأة التى أحبها ..

لقد جاءت الضربة لمانديلا من حيث لا يتوقع .. جاءت فى الظهر .. حيث الحماية والأمان .. جاءت من المرأة وهو يقود الثورة .. ولكن لم يتوقف عن الثورة .. ولم يفقد إيمانه بالمرأة .. واعترف بأن زوجته احتملت ما لم تحتمله امرأة أخرى .. ولكن الحب الذى خرج من قلبه .. كان لابد أن يخرج .

إن الثائر مثل الشاعر يحلم بتغيير الكون .. ويحلم بكنس القبح من حوله .. ويوم يفقد الثائر رومانسيته يفقد صنعته وخصائصه ويصبح رجل أعمال أو ضابط شرطة أو أى إنسان آخر مهمته الإبقاء على الأمر الواقع .

وقد كان مانديلا يقول إنه شاعر لا ثائر .. وإن قلبه المفعم بحب وطنه لا يستطيع الاستغناء عن المرأة .. فالوطن والمرأة هما «مشروع قومى واحد» .

لقد تابعت حياة هذا الرجل الأسطورة .. وغصت فيها .. وقلبت وجوهها السياسية والعاطفية .. وزرت بلاده فى الوقت الحرج الذى كانت السلطة فيه تنتقل من «البيض» إلى أصحابها «السود» الذين قتل منهم ٥ ملايين شخص خلال ٥٠ سنة

من الكفاح المسلح .. وأعترف بأننى لم أعرف حقيقة الحكمة الشائعة التى تقول: «لا يموت حق وراءه مطالب» إلا هناك فى جنوب إفريقيا التى تعرفت عليها فى شتاء ١٩٩٢ بعد رحلة طيران استغرقت ٩ ساعات من القاهرة إلى جوهانسبرج .

إننى لم أسقط فى هوى جوهانسبرج أو بريتوريا .. أو أى مدينة أخرى فى جنوب إفريقيا .. إنها مدن حديثة .. نظيفة .. عريضة .. لكن العلاقة مع المدن لا تقاس بالطول أو بالعرض .. ولا تحسب بالمواصفات الهندسية وقوانين التنظيم .. العلاقات مع المدن تقاس بالنبض .. بالقلب .. بالمقاييس العاطفية .

إن جوهانسبرج هى عاصمة المال والأعمال .. وبريتوريا هى العاصمة السياسية .. لكن الحكومة لا تمكث فيها سوى ستة أشهر وتنتقل فى النصف الثانى من السنة إلى كيب تاون .. إما جلونفتين فهى العاصمة القضائية .. حيث المحاكم والسجون .. ولا فرق بين مدينة وأخرى هناك .. إنها كانت مدناً بيضاء فى جزء من قارة سوداء .. شوارعها خالية من الرحمة .. والسطو والخطر عند كل منحنى .. وراء كل جدار مطواة لامعة فى يد شاب أسود تجدها فى ضلوعك أو ظهرك أو رقبتك .. إنه فقير معدم يريد أن يتذوق طعم الترف الذى يراه حوله والذى يشعر فى أعماقه بأنه صاحبه .. وبأنه حرم منه .

لقد سلخ الرجل «الأبيض» جلود «السود» وصنع منها أحذية وحقائب ووسائد وقبعات للأطفال .. واستخدم عظامهم فى تكرير «السكر» الذى يشرب به شاى الساعة الخامسة ـ على الطريقة الإنجليزية ـ وهو يتمشى ويتسلى بإطعام النسانيس الفول السودانى وثمار الفاكهة التى حرم منها «العبيد» الذين يزرعونها .. تماماً مثلما حرمهم من الذهب والألماس والمعادن الخام التى كانوا يستخرجونها من عيونهم قبل أن يستخرجونها من باطن الأرض وكان البيض يكسبون من وراء ذلك ٦٠ مليار «راند» سنوياً .. والراند يساوى الجنيه تقريباً .. أما السود فكانوا يموتون من

الجوع والنهب والرصاص والأوبئة .

لكنهم لم يستسلموا .. ومشوا وراء مانديلا وهم مؤمنون بأن الحق الذى وراءه مطالب لا يضيع .. ولا يموت .. والغريب أن هذه الحكمة صاغها العرب ورددوها.. لكنهم لم يؤمنوا بها وهم يقاتلون أو يفاوضون إسرائيل .

إن الناس فى جنوب إفريقيا ـ الذين يمثلهم مانديلا ـ واقعيون فى حياتهم العامة.. رومانسيون فى حياتهم الخاصة .. وقد تمنيت أن نستوعب تجربتهم .. ونتخلص من براءتنا التى صورت لنا أن سمكة القرش الإسرائيلية تنازلت عن أنيابها المفترسة ونسيت رائحة الدم وشمت بدلا منها رائحة الفل .. وأنها اهتدت وامنت بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر .. وأنها ستعيد الحقوق إلى أصحابها .. وكل الدنيا تعرف أننا واهمون .. إلا نحن .

لقد كان موقف السود فى جنوب إفريقيا أسوأ مليون مرة من موقف الفلسطينيين فى إسرائيل .. فهناك كان ٣٥٠ قانوناً للعنصرية .. قوانين مكتوبة وموافق عليها فى البرلمان .. قوانين جعلت الأوروبى الأبيض الذى يعتبر نفسه رسول الحضارة كائناً شرساً متوحشاً لا يعرف سوى الأذى .. مثل العقارب والأفاعى وغيرها من الكائنات التى تعض .

بالقانون .. كان من حق البيض .. سلب الأراضى والاستيلاء عليها .. ولذلك كان حوالى ٨٧٪ من مساحة البلاد (١٢٢١٠٠٠ كيلو متر مربع) ملكية خالصة للأقلية البيضاء .. وبالقانون حق المواطنة للبيض فقط وليس للسود أو الهنود أو الملونين .. فلا يسجل غير البيض فى مكاتب البيض .. وليس للسود هوية أو جنسية أو جواز سفر .. وعندما حصل القس الأسود ديزموند توتو على جائزة نوبل للسلام فى عام ١٩٨٤ كان من الصعب عليه السفر إلى السويد لتسلم الجائزة فليس من حقه استخراج جواز سفر .. وعندما قامت قيامة العالم على الحكومة العنصرية استخرجت

له جواز سفر وفى خانة الجنسية كتبوا: «غير محدد بعد» .

وبالقانون .. كان السود يعيشون فى مناطق خاصة معزولة عن مناطق البيض تسمى البانتوستانات .. إنها أحزمة من المساكن والأكواخ العشوائية قريبة من الغابات والمزارع .. ولا يوجد فى أحياء البيض سوى الخدم .. ومحرم عليهم البقاء فى هذه الأحياء بعد غروب الشمس إلا بتصريح خاص وإلا وضعوا فى السجون .

وبالقانون .. لم يكن من حق السود الانتقال من عمل إلى عمل أو من مدينة إلى مدينة إلا بتصريح خاص .

وبالقانون .. لم يكن السود ليتعلموا فى مدارس البيض .. أو ليأكلوا فى مطاعمهم .. أو ليشتروا من محلاتهم .. وقد روى لى رجل أعمال مصرى أنه ذهب إلى كازينو على نهر الغال فى جوهانسبرج .. كان مخصصا للبيض .. وفوجئ بمدير الكازينو يقول له إنه كان يتمنى أن يموت ولا يعيش اليوم الذى يدخل فيه السود أو الكلاب محله .. إنه يوم أسود أن يخدم فيه شخصاً أسود.

لقد تغير ذلك كله بعدما فعله مانديلا .. لقد جعل بلاده بالنسبة لأهله كالزهرة التى تتفتح .. تماماً كما وصف ما فعلت به جراسا ميتشيل التى أحبها فى ربيع ١٩٩٦ وقرر أن يقضى بها على وحدة نهاية العمر بعد مشوار طويل من المعاناة والألم .. وهى بالقطع امرأة تناسبه .. فقد كافحت مع شعبها من أجل تحرير موزمبيق.. ولعبت دوراً فى الحياة العامة فيما بعد .

أما زوجة مانديلا السابقة فقد انفصلت عن المحامى الشاب الذى أحبته .. ولم تتردد فى الدفاع عن نفسها .. «إننى لم أعش مع مانديلا سوى ثلاثة أعوام وافتقدته ٣٠ عاماً» .. واختفت «وينى» بعد ذلك .. لفها الصمت والنسيان .. وفى اليوم الذى قرأت فيه خبر زواجه فتحت كتاباً قديماً تحتفظ به وشمت وردة كان قد قدمها لها وحنطتها بين الأوراق الصفراء .. ولم تكن لها رائحة .. فقد فقدت عطرها القديم .

٣ لعنة الرجل العنيد !

أحيانا .. أشعر أن «عناد» هذا الرجل مثل حمل ثقيل فى رحم مغلق .. تفشل فى إسقاطه كل أساليب الإجهاض .. الإبر الحادة الموجعة .. ركل البطن بالأرجل .. الدحرجة على السلالم .. والقفز من الدور العاشر .. لكن .. بقى طفل «العناد» الذى يصر على الاحتفاظ به محمد الفايد محميا، لأن البطن بدا سميكا مثل قشرة الكرة الأرضية .. متموجاً كقاع بحيرة عتيقة تعرف كيف تحتفظ بالأسماك.

أن طفل العناد الذى يصر عليه محمد الفايد اسمه «الجنسية البريطانية» .. وهو طفل تجاوز كل شهور الحمل بسنوات، لكنه عاجز عن النزول إلى الحياة فى مستشفى «لندن كلينك» .. أو حتى فى عيادة صغيرة فى شارع الأطباء فى العاصمة البريطانية المعروف «هارلى ستريت» فكل الأطباء والسياسيين وأفراد العائلة المالكة ورجال الأعمال يرفضون ولادته .. ويؤكدون أن الحمل كاذب .. أو الحمل فاسد .. وأنه لا يزيد على كونه مجرد ورم خبيث .. لابد من استئصاله.

لقد أهانوه .. وحاكموه وسخروا منه. ثم أنهم اتهموه بأن نقوده التى اشترى بها متاجر «هارودز» الشهيرة فى لندن ليست نقودا نظيفة .. وبعد فترة من الزمن سحبوا من «هارودز» العلامة الملكية التى كانت تغرى كل سكان الأرض بدخول متاجر «هارودز» وشراء أى شئ منها على سبيل التفاخر ولو علبة مناديل ورقية ..

ثم .. اتهموه بالتحرش الجنسي .. وهى تهمة تدفن صاحبها فى قبر من التجاهل والاحتقار فى هذه البلاد الضبابية التى تبدو فى أفضل أحوالها مثل لوح رصاص بارد .. ممل.

لقد أجبروه على ابتلاع أسياخ النار .. وطحن الزجاج بأضراسه .. وزرعوا طريقة بغابة من المسامير .. وحولوا بريطانيا بالنسبة له إلى مكعب من الأسمنت .. أو حولوها إلى معتقل من نوع خاص .. ليس مسموحا له فيه أن ينسى نفسه .. أو يفقد ذاكرته.

ثم .. كان أن قتلوا أبنه الوحيد .. «عماد» .. أو «دودى» .. أسقطوا الزهرة الوحيدة التى نبتت فى شجرة قلبه .. أحرقوه وكانه لم يكن شابا يكبش النجوم بيده .. وانما كان مجرد كومة من القش قابلة للاشتعال فى كل لحظة.

لكن .. رغم ذلك كله .. يصر على الحصول على هذه الجنسية التى بدت وكأنها تذكرة دخول الجنة .. أو كأنها حجر الفلاسفة الذى سيمنحه الحكمة والخلود .. أو كأنها خاتم سليمان الذى سيحقق له ما عجز طوال حياته عن تحقيقه .. وقد وصلت الحالة إلى حد الهستيريا .. والاستسلام للوهم.

ففى البرنامج التليفزيونى «تى. إف. أى فرايدى» الذى يقدمه «كريس ايفانز» كل يوم جمعة، ظهر محمد الفايد هو وفريق الكرة الشهير «فولهام كلوب» الذى يتبناه وينفق عليه الملايين سنويا، وقد أرتدى قميصا مشجرا ملونا وراح يعرض معاناته مع الجنسية البريطانية. ويبدوا أن مقدم البرنامج شعر بالرثاء لحاله فقرر أن يمنحه جواز سفر من عنده .. ولكن مقدم البرنامج لم يحرم نفسه من السخرية منه عندما وصفه بالسمين العجوز .. ولعبت قرية بريطانية صغيرة. تسمى «أشورست وود» تقع فى منطقة «ساسكى» وقد أعلنت أنها جمهورية مستقلة عن بريطانيا الأم. على هذه العقدة النفسية المزمنة وقررت منح الجنسية لمحمد الفايد الذى كان مستعداً على ما يبدو لشراء «الترام».

ما الذى يجعله مصراً على ذلك؟ .. ما الذى يدفعه لشراء «جواز سفر» دولة لا

تطيقه بملايين الجنيهات يدفعها فى صورة تبرعات لمشروعات خيرية .. ورعاية فريق كرة.. وشراء القصور الملكية القديمة وترميمها ثم إعادتها إلى الدولة؟ .. إن بعض التقديرات تشير إلى أنه أنفق على النشاط العام فى بريطانيا ما يقرب من ٥٠٠ مليون دولار دون فائدة .. فهو فى نظر السلطات البريطانية رجل أعمال يعرف فى معاملاته الطرق الملتوية .. وهو فى نظر الأسرة المالكة واحد من طبقة الأثرياء الجدد «النفو ريش» يريد أن يشترى الأرستقراطية التى يفتقدها بكل ما يملك من ثروة .. وهو فى نظر رجل الشارع الانجليزى لا يزيد على شخص يريد الانتماء إلى امبراطورية عفا عليها الزمن.. ودخلت المتحف .. ولم يبق من ذكراها سوى حديقة حيوان «لندن» التى استوردوا حيواناتها من المستعمرات القديمة من باب الذكرى والحنين إلى الماضى.

وفى الوقت نفسه لم يقدم محمد الفايد الكثير لوطنه أو لمدينته التى ولد وتربى وتعلم فيها، وكسب منها أول نقود فى حياته .. بل .. أنه لم يتردد فى إثارة أزمة حادة عندما تبرع بما لا يصل إلى مليون دولار لمستشفى للأطفال فى حى «الأنفوشى» بالإسكندرية.. إن المستشفى يحمل اسم الملكة الأم الأخيرة فى مصر .. الملكة «نازلى» .. وهى التى أسسته .. ولكن محمد الفايد اشترط أن ينزع اسمها ويوضع على لوحة الشرف فى مدخلها اسم ابنه «عماد».

لقد ولد فى عام ١٩٢٩ فى «الأنفوشى» .. والده كان مدرساً بسيطاً .. يعيش فى شقة متواضعة فى حارة «الوكيعى» رقم ٥١ كافح من أجل تعليم أولاده الثلاثة الذى كان محمد الفايد أكبرهم عمراً .. وأكثرهم حظاً .. واسمه الحقيقى محمد فايد .. ولا نعرف سر تحول فايد إلى الفايد .. هل كان هذا التحول من باب الإيحاء بأنه ليس مصريا .. ربما .. لكن المؤكد أنه حمل لقب الفايد عندما هاجر إلى بريطانياً فى عام ١٩٧٥ وبعد أن شارك فى شركة «لوبز هو» وكان معه فى الشركة «أل رولاند» الذى أصبح فيما بعد عدوه اللدود وخصمه الذى لا يطيق وجوده .. على أن الفايد لم يصبح حديث الناس إلا بعد أن أشترى فندق «ريتز» .. أشهر فنادق العاصمة الفرنسية باريس .. وهو الفندق الذى شهد الأيام الأخيرة لأبنه دودى قبل مصرعه .. فقد

قضى ليلته الأخيرة هو والأميرة ديانا فى جناحه الملكى .. لكن .. يبقى السؤال .. من أين له كل هذا؟

الاجابة تتلخص فى أسم شهير آخر هو عدنان خاشقجى الذى تربى وعاش فى بداية الخمسينيات فى الإسكندرية .. وهناك تعرف عليه محمد الفايد .. وتعرف على شقيقته «سميرة» وسرعان ما ربط الحب بينه وبينها .. ثم ربط البيزنيس بينه وبين شقيقها .. فقد سافر للعمل معه فى السعودية وكان عدنان خاشقجى ينتج «الجبس» ولم يكن قد دخل بعد إلى عالم السلاح الخفى .. وهو العالم الذى أصابه فيما بعد بلعنه المطاردة من معظم أجهزة المخابرات فى العالم .. وأصاب كل من عرفه بلعنة من نوع خاص ..

أن عدنان خاشقجى كان قادراً على تحويل التراب إلى ذهب .. لكن .. بشرط ألا يسأله أحد عن السبب .. وكان قادراً على أن يعطى فرصة الثراء لكل من حوله .. لكن بشرط أن يأخذوا مع الثروة اللعنة .. ويأخذوا مع المال النوم على الأشواك .. ويأخذوا مع الجاه الموت فى ظروف غامضة.

لقد كانت هناك لعنة «ما» تطارد كل من بدأ ثروته بخميرة من عدنان خاشقجى .. أو كل من عاش بالقرب منه.

إن شقيقته «سميرة» التى تزوجت محمد الفايد سرعان ما أنجبت منه «عماد» أو «دودى» .. وسرعان ما شعرت بالملل فطلبت الطلاق .. وتزوجت من دبلوماسى سعودى هو «أنس ياسين» عاشت معه فى الهند .. حيث كان سفيراً لبلاده هناك .. وأنجبت منه فتاه هى «جمانة» .. لكن الملل سرعان ما طاردها .. فطلبت الطلاق .. وتركت الدبلوماسية .. واتجهت للصحافة .. فنشرت مجلة «الشرقية» .. وهى مجلة أنيقة لا تفتقد القضايا الجادة .. كانت تكلف عدنان خاشقجى أكثر من مليونى دولار فى السنة .. وفى حفل للسفارة اللبنانية بالقاهرة التقت بدبلوماسى شاب هو عبد الرحمن الأسير وقعت فى غرامه من أول نظرة .. وبعد أيام كان زوجها وأنيس وحدتها وشريك شقيقها فى تجارة السلاح .. وقد تغير كثيراً بعد زواجه منها .. انتمى

إلى عالم الثروة والشهرة والأرستقراطية السياسية .. لكنه ابتعد يوما بعد يوم عنها إلى أن كان الطلاق الذى توقعه وأنتظره الجميع.

لكن .. سبق الطلاق حادث درامي يرويه ناصر الدين النشاشيبي الذى كان قريباً منها ومن شقيقها ومستشاراً لمجلتها .. «سافرت مع عبد الرحمن الاسير من «مونت كارلو» وكانت قد عرفت أنه يحب غيرها وفى الطريق إلى «كان» أوقفت السيارة الرولزرويس فى منتصف الطريق وطلبت من السائق أن يطرد «البيه» منها .. ولم تمر سوى فترة من الزمن حتى شعرت بالحزن والأكتئاب وفقدان النوم .. وفى ليلة من ليالى الأرق الحاد لم تستطع أن تنام إلا بعد أن تناولت جرعة زائدة من الحبوب المهدئة .. لكن النوم كان أبديا .. فقد انفجر الدم فى رأسها كالنافورة .. وخلفت وراءها ٥٠ بالطو فراء .. وصناديق ملأى بالجواهر مخزونة فى أكبر بنوك سويسراً .. وخلفت وراءها أمنية لم تتحقق بأن تنام ليلة واحدة وهى خالية البال .. متحررة من اللعنة التى أصابتها.

وأمتدت اللعنة إلى محمد الفايد .. إنه رغم الثراء الذى لا حدود له إلا أنه فقد ابنه الوحيد .. لقد بدأ ابنه دودى الفايد مشواره العملى فى الحياة بدراسة الاخراج السينمائى .. وأخرج فيلماً نال الأعجاب هو «عربة الجياد النارية» .. لكن .. النجمات فى هوليوود كن أكثر جاذبية له من البلاتوهات .. فترك السينما وتفرغ للمغامرات الخاصة .. وكانت المغامرة الكبرى مع الأميرة ديانا والتى أنتهت بمصرعيهما معا .. لتواصل اللعنة عملها بنجاح ساحق.

ولقد تصورت أن محمد الفايد بعد مصرع ابنه الوحيد سيتوقف عن عمله .. وسيعلن اضراباً عن الصراعات التى لا يتوقف عن الدخول فيها .. وسيعتذر عن التنفس .. ويعود إلى الأنفوشى .. موطنه الأصلى .. ليتكلم مع أهله هناك كما كان .. ويأكل معهم .. ويندمج فيهم .. ويلقى بعصاه السحرية فيحول الحى المتواضع إلى حى لامع .. يبرق .. لعله يحصل على الدواء والشفاء.

كنت أتصور أنه سيعود إلى وطنه ليريح رأسه على صدره ويربط سفينته التى

لم تكف عن الرحيل فى أقرب مرسى .. لكن .. ذلك لم يحدث .. وخابت كل توقعات العقلاء والصوفيين والرومانسيين .. وواصل الرجل تحدى قدره ..

لقد أستغل موت ابنه المأساوى فى الحصول على المزيد من الضوء .. وراح يتهم بعض الوزراء بتقاضى الرشوة منه .. وراح يتهم الأمير فليب زوج الملكة بتدبير حادث قتل ديانا ودودى بمساعدة أجهزة الأمن البريطانية .. و راح ينشر على شبكة الأنترنت أسماء العملاء والجواسيس السريين للمخابرات البريطانية وساعده فى ذلك عميل سابق معزول هو ريتشارد توميلنسون .. وقد وصف محمد الفايد هؤلاء العملاء والجواسيس. ومنهم اثنان أتهمهما بقتل ابنه وقتل ديانا معا. بأنهم مثل عصابة «آل كابونى» التى يستخدمها القصر الملكى فى الجريمة المنظمة .. وفى المواجهة بدأت المؤامرات الرسمية ضده .. فخططوا لاعتقاله بتهمة كسر خزانة فى محلات هارودز كانت تخص تاينى رونالد .. ولولا اعتراف رجل شرطة بأنه دبر هذه اللعبة لكان الآن فى السجن .. وربما مطرودا من بريطانيا التى يستثمر فيها أكثر من ثلاثة مليارات دولار ويمنح فرص عمل لآكثر من ثلاثة آلاف عامل وموظف هناك.

لقد جعلت كل هذه التصرفات محامياً مصرياً اسمه مصطفى رسلان يرسل انذاراً قضائيا إليه يطالبه فيه بالكف عن طلب الجنسية البريطانية .. فطلبه لا ينطوى على إهانة دولية له فقط وانما لباقى الشعب المصرى .. وطالبه المحامى بتصفية ممتلكاته فى بريطانيا والعودة إلى مصر.. وهدده برفع دعوى ضده وضد وزير الداخلية المصرى لإسقاط الجنسية المصرية عنه إذا لم يكف عما هو فيه.

ولا يهمنى أن يحصل محمد الفايد على الجنسية البريطانية أو تسقط عنه الجنسية المصرية .. ما يهمنى هو ألا يمتد عبثه إلينا .. وينزع اسم الملكة نازلى من لوحة الشرف فى مستشفى الأطفال بالإسكندرية .. ليضع اسم ابنه عليه .. مقابل مبلغ من المال .. يتبرع بأضعاف أضعافه لجمعيات الكلاب اليتيمة .. ردوا إليه ما دفع.. وردوا إلى السكندريين احترامهم للتاريخ واحترامهم لأنفسهم..

٤ تحية ... لتحية

فى أول ثانية قطعت المسافة بين الاقتناع والشجاعة .. وقالت لى: «من عادتى أن أفجر نفسى . لا تتعجب من غرابة طقسى .. فى برودة الشتاء يولد الصيف .. من عادتى أن أتجاوز الخجل الذى سجنوا فيه النساء .. لا تصوف فى الحب .. الحب كيمياء .. أعيش فيه حتى البكاء .. لكننى عندما أكتوى بنيرانه أجرى على الأولياء .. من عادتى أن أمارس ما أؤمن به حتى الجنون .. ولا أبالى بغضب العيون .. فالقاعدة أكون أو لا أكون» .

كانت بدوية محمد على كريم وشهرتها تحية كاريوكا قد امتلأ جسدها الى حد الترهل وشحب وجهها إلى حد الاصفرار .. لكن .. ابتسامتها كانت ساحرة .. وكلماتها بقيت لاذعة .. قاذفة .. قاتلة .. تركب غرور الظباء .. وتحتفظ لما تبقى من أنوثتها بحجم وافر من الكبرياء .. كانت مضربة عن الطعام احتجاجاً على قانون نقابة المهن الفنية .. وكانت المرة الأولى التى أراها فيها .. ولم أكن أعرف بدقة هل جئت إليها بحثاً عن رؤية حلم قديمة صنعته فى مراهقتى بما قدمته من

أفلام حتى لو تحقق الحلم بعد فوات الأوان؟ .. أم أننى جئت إليها لأقيس بنفسى حجم الصدق والكذب فى الأساطير السياسية التى تروى عن شجاعتها وشهامتها؟.. وكأننى غير مصدق أن راقصة - لا يرى الناس فيها سوى هز الوسط وغمز العين - يمكن أن تكون بهذه الشهامة والجرأة السياسية .

لقد روى لى صلاح حافظ . أستاذى الذى علمنى مليون حرف فلم أصر له عبداً وانما صرت له صديقاً . انه كان مطارداً من المباحث العامة هو وكل فرق اليسار فى مصر فى الخمسينيات عندما وجد نفسه فى مخبأ سرى فى بيت تحية كاريوكا.. تركته وسط الكتب والطعام وجاءت له أولاً بأول بالصحف والأخبار .. كان طالباً فى كلية الطب وصحفياً محترفاً وسياسياً يؤمن بأن الوطن لا يمكن تغييره باستعطاف الحاكم وانما لابد من أن يشعر بقوة الجماعات السياسية حتى يستجيب لمطالب الناس .. ووقع صلاح حافظ فى هوى تحية .. ولم يتردد وهو شاب مغمور فى أول المشوار فى أن يطلب يدها .. لكنها .. ابتسمت ابتسامتها الساحرة وهى تقول: اذهب يا بنى إلى أصحابك.. الدنيا أمامك .. لا تلتفت للوراء .

وفى شيخوخة صلاح أبو سيف - المخرج الذى نقل السينما المصرية من القصور الى الحارة. رحت أسجل معه مشوار عمره .. وعندما جاءت سيرة فيلمه «شباب امرأة» وجدت لمعة فى عينيه .. وبعد ثوان من الصمت والتردد .. كشف سراً لم يقترب منه من قبل .. انه هو نفسه بطل الفيلم .. لقد سافر إلى باريس لدراسة فن السينما .. كان بريئاً فى عاصمة تخطف القلب بلا تخدير .. أو تحذير .. كانت براءته هى الطعم الذى غمزت به سنارة صاحبة البنسيون التى تعرف ما تريد .. وتحصل على ما تريد .. وكان ما كان .

لقد فضت المرأة الباريسية بكارة الشاب المصرى القادم من بولاق .. لكن .. ما لفت نظره البساطة التى حصلت بها المرأة على ما تريد .. وعدم الانكسار والندم على ما فعلت .. دخلت فى كل التفاصيل التى يجهلها .. دخلت تحت قشرة الأشياء.. ولم يهمها الأعمار والأسماء .. انها الأنثى القوية التى لم يجد مثلها إلا فى تحية كاريوكا على حد اعترافه لى .. «انها أول امرأة أقابلها تتصرف دون اعتذار عن أنوثتها .. بل أنها كانت تشعر بالتميز لأنها أنثى .. ولأنها موهوبة .. ولأنها تعرف ما تريد وتحصل عليه دون ندم أو بكاء على اللبن المسكوب .. فدائماً تملك الفرصة لأن تبدأ من جديد .. ودائماً تعرف كيف تكون جذابة وموهوبة بالأسلوب المناسب فى الوقت المناسب .

قالت لى وهى ترقد مضربة عن الطعام:

«كنت دائماً أشم رائحة الرحيل .. رائحة السفر .. كنت دائماً أشعر بأننى مطاردة بالقضاء والقدر .. لا مع رجل أحببت بقيت .. ولا فى مرحلة فنية جلست .. حياتى ذبذبة دائمة بين الربابة والكآبة .. لكن .. كنت قادرة فى أحلك الظروف على أن أقول ما أشعر به .. كان قلبى يسبق عقلى .. ولسانى يحاكم حياتى .. كنت قادرة فى أحلك الظروف على احتراف الحياة .. والذى يحترف الحياة كالمقامر .. ليس مهما أن يكسب.. ليس مهما أن يخسر .. المهم أن يظل يلعب .. المهم أن نستمر فى لعبة الحياة».

لم تكن تحية كاريوكا أبداً امرأة مستريحة .. هاجرت من مدينتها الساحلية .. الاسماعيلية إلى القاهرة .. القادرة .. وهى طفلة فى العاشرة .. حائرة .. عرفت كيف تصيغ بلغة الجسد خيالاً .. وجمالاً وكلاماً .. تزوجت كتيبة من الرجال ..

لكنها فى النهاية عاشت وماتت فى فراشها وحيدة .. قفزت بشهرتها إلى أعالى السماء لكنها لم تقع فريسة فى مصيدة الضوء .. وواصلت السيطرة على الناس بتمثيلها بعد أن رفض الرقص أن يطاوع امتلاء جسدها .. شبعت من خضوع أصحاب السلطة السياسية لها .. وتعبت من نفاقهم الذى لا يدارونه وتناقضهم الذى لا يقدرون على تجاوزه .. فهم مستعدون لأن يشبعوا جسدها اعجاباً فى الخفاء .. لكنهم لا يقدرون علناً على اللقاء والوفاء .. انهم يحرثون جسد المتعة كما يحرثون أحلام الأمة .. ولكنهم لا يقدرون على فضيلة التوحد بين ما فى السر وما فى العلن.

إن أشهر ما نسب لتحية سياسياً قصة يمكن أن تكون حقيقة، والغالب أنها أسطورة .. كان الملك فاروق جالساً فى كازينو «الأوبرج» الذى كان شهيراً فى ذلك الوقت عندما راحت اليه تحية بعد أن انتهت من رقصها .. لم تتدلل عليه .. ولم ترحب به .. وانما قالت له: «هذا المكان لا يليق بك ملكاً .. مكان الملك المناسب هو قصره».

ولعل مواقف تحية السياسية أكثر شجاعة من أولئك الذين يحترفون البلف والتهويش مرة باسم الناس .. ومرة متحالفين مع الوسواس الخناس .. ان السياسة عند تحية كانت لحظة انسانية .. لا خبرة ايديولوجية .. لحظة شهامة تعودت عليها .. تنصف فيها الضعيف .. وتؤوى فيها المطارد .. وتصفق فيها لمن يتمرد على واقعه من أجل واقع أفضل وأجمل .. هى نفسها تمردت على حياتها المتواضعة .. وعلى التقاليد الصارمة .. وعلى القيود المكبلة .. ونحتت فى الصخر .

وقد توقفت كثيراً عند المقالة التى كتبها ادوارد سعيد عن تحية بعد رحيلها .. ان المفكر العربى المهاجر الى قمة التدريس الأكاديمى فى الجامعات الأمريكية يتوقف طويلاً عندها .. وربما هذا ما شجع الدكتور جلال أمين على الكتابة عنها أيضاً فى

عدد شهر نوفمبر الأخير من مجلة «وجهات نظر» .. وربما هذا ما شجعنى كذلك على الكتابة عنها .. ان الناس تستمتع بفن الرقص الشرقى .. لكنها لا تغفر الكتابة عنه .. فالاستمتاع فى بلادنا يرتبط بالخفاء والسرية .. والكتابة عن الأشياء هى اختيار مشترك بين القارئ والكاتب .. والقارئ أحياناً يكون ديكتاتوراً .. «فهو لا يكتفى بالقراءة قبل النوم .. ثم يضع رأسه على المخدة ويغفو .. وانما يناقشك قبل النوم وبعده ويتسلل إلى عقلك وتحت ثيابك .. وهو لا يكتفى بالاعجاب بك أو بالغضب منك .. وانما يجلس فوق أوراقك ويتدخل فى جوهر الكتابة .. واختيارات الكاتب .. وذوقه .. ومشوار عمره .. وحياته الزوجية» .

أعترف بأننى تحمست للكتابة عن تحية كاريوكا بعد أن فتح الطريق بشجاعة ادوارد سعيد .. الذى سقط فى هواها وهو صبى خجول فى بداية الخمسينيات وكانت ترقص على خشبة المسرح فى كازينو «بديعة» .. ثم وجدها أمامه فى أحد شوارع الزمالك .. ولم يقدر بكل ما يملك من فوران المراهقة على أن يواجه نظرة عينيها الصريحة فأشاح بنظره عنها .. ويبدو أن ادوارد سعيد المفكر الأكاديمى الكبير لم يستطع أن ينسى هذه اللحظة .. فعاد إلى القاهرة فى منتصف الثمانينيات وسعى إلى أن يلقاها .. انها الآن لم تعد الراقصة .. وانما هى «الحاجة» المحجبة التى لم تتملص من تاريخها وحياتها .. لكن .. ادوارد سعيد كان لايزال متوقفاً عند لحظة المراهقة التى لم يستطع فيها المواجهة .. فراح يتأملها .

«قد تلجأ راقصات أخريات إلى الألعاب البهلوانية أو التلوى على الأرض كالحية أو الانخراط فى ستربتيز من نوع ما .. ولكن ليست تحية كاريوكا .. لأن سحرها وتألقها يوحيان بشئ كلاسيكى» .. ويستطرد ادوارد سعيد «وأتذكر بصورة خاصة

أنه منذ الشروع فى الرقص وحتى استكمال العرض أن ثغرها كان يفتر عن ابتسامة تخرس أى بهرجة مسرحية مقترنة بالمشهد وبالرقص وتطهرهما بفضيلة التركيز المنصب على دواخلها العميقة وأفكارها الشاردة فى أعماق النفس» .

«هى ظاهرة شرقية لا تقبل الترجمة الى الثقافات الأخرى» .. و «ليس من فنان يقارنها فى الشهرة خارج العالم العربى سوى أم كلثوم» .. وقد انتزعت «عرش الرقص الشرقى» من «الشوام» الذين كانت على رأسهم بديعة مصابنى .. وقدمته بتميز لم تقدر عليه راقصة شرقية أخرى بما فى ذلك الراقصات الشرقيات غير العربيات فى اسرائيل وروسيا وفرنسا والولايات المتحدة واللاتى سحبن البساط من هذا الفن المصرى وأصبحت القاهرة تستورده كما تستورد السيارات والكمبيوتر وزيت الزيتون والقمح .. وهى ظاهرة مثيرة للدهشة والاستغراب وتحتاج لتأمل وفحص يقوم بهما الذين يتحدثون كثيراً عن العولمة والهوية والثقافة المحلية .

إن الرقص الشرقى يختلف عن الباليه .. فن الرقص الغربى الشهير .. إن الباليه يقوم على التحليق والخفة وتحدى ثقل الجسد .. أما الرقص الشرقى كما مارسته تحية فنجد الراقصة فيه وهى تثبت موقعها بشكل متزايد فى الأرض .. بل تبدو وكأنها تحفر مكاناً فيها ولا تتحرك إلا بالكاد دون محاولة للتعبير عن انعدام الوزن كما هو الحال لدى راقص أو راقصة الباليه .. واذا كان رقص تحية العمودى يوحى بسلسلة من الملذات الأفقية فهو يوحى فى الوقت نفسه بنوع من المراوغة اللطيفة التى تستعصى على التحديد العقلى .. ادوارد سعيد - جريدة «الحياة» فى يوم الأحد ١٠ أكتوبر ١٩٩٩ .

ولا يلتفت ادوارد سعيد الى نقطة مهمة فى حياة تحية كاريوكا وهى أنها عاشت

فى الحياة العامة والحياة الفنية أطول من أى نجم آخر .. فقد استمرت نحو ٦٠ سنة ترقص.. وتمثل .. وتجادل .. وتثير المتاعب لنفسها ولمن حولها .. وهى ظاهرة تستحق الانتباه .. فكثيراً ما يجد النجم أن من الأفضل له أن ينسحب فى الوقت المناسب ، تاركاً صورة جميلة فى لحظة الاعتزال عند الناس لا يحطمها الاستمرار.. لقد فعلت ليلى مراد وهند رستم ذلك .. لكن مريم فخر الدين لم تستوعب هذه الحقيقة .. وكان من حسن حظ مطرب موهوب مثل عبد الحليم حافظ أن يموت خطفه الموت فى قمة نجاحه فبقى أسطورة يصعب على الزمن تجاوزها .. إن الانحساب من الضوء فى الوقت المناسب قرار استراتيجى فى حياة الفنان- النجم لا يقل خطورة وحساسية عن أى قرار مصيرى آخر يتخذه فى حياته .

لكن .. تحية .. نجت من هذا المأزق .. وظلت تأسر القلوب رغم كل التحولات الحادة التى مرت فى حياتها العلنية .. فقد أحبها الناس وهى تمثل فى ذات اللحظة التى اعتزلت فيها الرقص .. وأحبها الناس وهى تمثل دور الأم فى الوقت الذى تنازلت فيه عن تمثيل دور المرأة اللعوب التى تحترف الشر والغواية .. وأحبها الناس وهى تلف رأسها بالحجاب فى الوقت الذى قررت فيه أن تروى ذكرياتها بصورة عدائية حادة عبر قنوات التليفزيون .. ان القبول من عند الله .. وقد منحها الله ثروة من هذا القبول لا أتصور أنه منحه لفنان آخر .

ولكن تحية .. مثلها مثل كل النجوم والزعماء والمشاهير والشعراء فى عالمنا العربى.. فى هذه البقعة الغريبة من العالم التى تدمن فقدان الذاكرة وتهوى تدمير كل آثار الخالدين منها لم تترك شيئاً وراءها يحفظ تاريخها .. وتراثها .. إن ذلك عار شائع من المحيط إلى الخليج .. وخطأ متكرر ارتكبناه فى حق الجميع .. من

سعد زغلول إلى أنور السادات.. ومن محمد على إلى جمال عبد الناصر .. ومن أم كلثوم إلى تحية كاريوكا .. ومن عبد الحليم حافظ إلى فيروز .

لقد هدمنا فيلا أم كلثوم .. ولا نعرف ما جرى فى البيت الذى حكم منه جمال عبد الناصر مصر .. وليس فى الأرشيف تسجيلات لرقصات تحية كاريوكا .. ولا نجد من يحتفظ بالنوت الموسيقية لفريد الأطرش .. نحن كما قال صلاح حافظ أقدم تاريخ وأضعف ذاكرة .. وضعف الذاكرة يجعل كتابة التاريخ عملية عشوائية انفعالية تخضع للهوى .. وتجعلنا دائماً فى السياسة والفن والحياة نبدأ دائماً من الصفر .. وندفع ثمن الشئ ليس مرة واحدة أو مرتين وإنما ملايين المرات .

ان هذا ما عبر عنه ادوارد سعيد فى مقاله الممتع المنصف عن تحية كاريوكا .. فهو يعتبر حياتها ومماتها يرمزان إلى ذلك الجزء الكبير من حياتنا فى تلك البقعة من العالم الذى ينقضى دون تسجيل .. ان «كل البلاد العربية التى أعرفها لا تملك دوائر حقيقية للمحفوظات أو مكتبات رسمية كما أنها بلا سيطرة كافية على معالمها وآثارها وتواريخ مدنها والأعمال الفنية والمعمارية فيها مثل القصور والجوامع والمدارس .. وهو ما جعل تاريخنا يكتبه بالدرجة الأولى الأجانب والغرباء وعملاء المخابرات .. أو تكتبه ذاكرة وطنية مشوشة تتفجر بالغموض والاضطراب والتوتر .

لقد كانت تحية كاريوكا قادرة فى حياتها على اثارة الجدل .. ويبدو أنها لا تزال قادرة على ذلك بعد موتها أيضاً .

٥ ابتسم .. ولو على الحساب

فى هذا اليوم كاد يطير فى السماء .. والمؤكد أن الأرض لم تكن قادرة على أن تسعه .. لقد قبض أول مرتب فى حياته بعد سنوات من التسكع والبطالة .. إنه اليوم سيبدأ حياة جديدة .. وسيودع كل حياته القديمة .. المريرة .

لم يشأ أن يعود إلى بيته .. وقرر أن يغزو الحياة بما يملك فى جيبه من سلاح .. دخل عمارة تحت التشطيب .. لكنه عندما خرج اكتشف أن مرتبه يكفى لأن يستأجر شقة فيها لمدة ساعتين .. وفى محل الثياب الجاهزة القريب منها اكتشف أن مرتبه يساوى نصف بنطلون بدلة .. أو قميصاً ونصف رباطة عنق .. أو حذاء بدون الرباط .. لكنه لم يشعر باليأس .. وواصل غزوه لقلب العاصمة ..

دخل مطعماً كان يحلم بتناول طعامه فيه .. لكنه بمجرد أن لمح الأسعار فى قائمة الطعام حتى هب من مكانه ليجد نفسه فى الشارع .. فمرتبه لا يكفى إلا لتناول ثلاث وجبات هنا بشرط أن يترك ساعة يده رهناً لباقى الحساب .

وأخيراً هداه تفكيره لزيارة طبيب الأعصاب ليعالج نفسه من النوبات التى أصابته انتظاراً للوظيفة .. وقبل أن يدفع بقشيشاً للممرضة الحسناء عرف منها ..

أن عليه أن يدفع ضعف ما فى جيبه من مال ثمناً للكشف وعربوناً لخمس جلسات.. فالجلسة الواحدة لعلاج أعصابه تساوى ثلث مرتبه .

هذه واحدة من القصص القصيرة الساخرة لكاتب تركى شهير هو عزيز نيسين.. سمعت عنه كثيراً .. لكنى لم أجد له فى مكتبات القاهرة ترجمات لأعماله .. فظلت علاقتى به ـ لجهلى باللغة التركية ـ مثل نصوص كتاب الموتى المكتوبة باللغة الهيروغليفية .. وظللت أقرأ عنه ـ ولا أقرأ له ـ فى صحف العالم التى تعتبره واحداً من أهم كتاب القرن العشرين .. لكن .. فى الأسبوع الماضى عثرت على كنز من كتاباته .. مترجمة فى سوريا .. اشتريتها من مكتبة فى «أبو ظبى» «أثناء رحلة خاطفة للمشاركة فى برنامج تليفزيونى على الهواء عن حرية الصحافة فى العالم العربى .. وهو ما جعلنى لا أشعر برحلة العودة وأنا ألتهم هذا الكنز من المتعة والسخرية .

وعزيز نيسين ولد فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٥ فى جزيرة قريبة من استنبول .. وعزيز اسم مستعار .. فاسمه الحقيقى هو محمد نصرت .. لكن عزيز ليس الأسم الوحيد المستعار الذى كتب به .. وإنه كان أشهرها .. فقد استخدم ٢٠٠ من الأسماء المستعارة .. بسبب مطاردات الأمن السياسى له .. وهى مطاردات فى تركيا من النوع الثقيل جداً .. وهو ما جعله يكتب فى إحدى قصصه أنه قرر أن ينظم حياته .. فوضع برنامجاً للأسبوع: الأثنين ـ استجواب فى قضية نشر .. الثلاثاء ـ تفتيش البيت .. الأربعاء والخميس ـ جلسات محاكمة .. الجمعة والسبت ـ استيفاء المحاضر .. الأحد ـ إجازة .. أما بقية الأسبوع فتخصص للكتابة .

«يجب الاستمرار .. لا يجوز ترك هذا الجمهور من الناس ـ الشرطة والمحققين ورؤساء النيابة والقضاة ـ عاطلين عن العمل .. ليس لدى رغبة كبيرة فى التفكير فى الموت .. لكنى أعتقد أنهم سيقولون عنى بعد موتى: كان إنساناً موهوباً .. يجيد

استعمال قلمه .. ولولا كل هذه الاستدعاءات والتفتيشات والاستجوابات والمحاكمات لكان يمكن أن يكون كاتباً» .

وفي قصة أخرى يرد على كل الذين يعتقدون أن كتابة المقال مسألة غاية في السهولة .. إن البعض يعتقد أنها مجرد قلم يجرى على ورق .. لكنها بالنسبة له ليست كذلك .. فعندما يشرع في الكتابة تدخل زوجته لتحذره من التهور الذى يصيبه عندما يكتب .. فيشطب في رأسه فكرة . ويدفع أولاده إلى حجرة الطعام حيث يكتب لتضغط عليه عصبياً .. فيشطب فكرة أخرى .. ثم يأتى دور الأب الذى لا يستطيع أن يرفض له طلباً .. فيشطب فكرتين .. ثم يأتى الدور على جاره الذى يفهم جيداً في قانون الجنايات وقانون المطبوعات ويكون الحوار القانوني معه بكل ما فيه من تحذيرات بالسجن فيشطب ثلاث أفكار .. وبعد أن يبذل مجهوداً كبيراً في أن يكتب ما تبقى في رأسه .. ربع أو خمس أو سدس فكرة .. يذهب إلى الجريدة سعيداً بالإنجاز .. وما أن يقدم المقال للمسئول عن التحرير .. حتى يجدها تعود مرة أخرى ولكن طائرة إلى وجهه .. مع عبارة أصبحت ثابتة: «والله .. أنت مش حتجيبها البر» .

ولأنه لم يأت بها إلى البر في غالبية الأحيان فقد دخل السجن عدة مرات .. كان مجموعها خمس سنوات ونصف السنة .. كما أنه حين وجد نفسه عاطلاً عن الكتابة والنشر افتتح مكتبة لبيع الكتب في استنبول عام ١٩٥١ ولكن الشرطة السرية أحرقتها .. فكان أن فتح ستديو للتصوير بعد عام واحد .

وفي قصة من قصصه يروى عن اتفاق جرى بينه وبين رفاقه الذين كانوا في السجن أن يقضوا ليلة رأس السنة في مطعم محدد .. وفي تلك الليلة .. كان جائعاً .. ولم يكن معه قرش واحد .. ولم يكن ما يرتديه من ثياب يناسب البرد القارس الذى تتميز به تلك الليلة .. وتحت المطر مشى ساعات طويلة حتى وصل إلى المطعم ..

وراح ينتظر الرفاق القدامى .. لكن الانتظار طال حتى اقترب الليل من الفجر .. ولم يجد من يحنو عليه سوى عاهرة عابرة قررت أن تأكل معه - رغم أنها تناولت العشاء مع زبائنها - حتى لا يصاب بالحرج لو هى دعته على الطعام لسد جوعه دون أن تشاركه فيه .

وقد بدأ عزيز نيسين حياته ضابطاً فى الجيش .. وفى وقت الدراسة العسكرية وجد نفسه مشدوداً لدراسة الفنون التشكيلية .. لكنه فى النهاية لم يبرع إلا فى الكتابة الساخرة التى عرفته بها الدنيا كلها .

ويروى أنه ذات صباح أصيب بصدمة عاطفية حادة عندما قرأ خبر وفاة إحدى نجمات السينما .. وعندما رأت زوجته علامات الحزن على وجهه سألته فى غضب: «هل تعرفها؟» .. وعندما هز رأسه .. مشيراً إلى أنه يعرفها .. أصرت زوجته على طلب الطلاق .. وغادرت البيت تاركة له الأولاد والبنات .

وعبثاً حاول أن يقنعها بأنه يعرفها .. لكنه .. فى الوقت نفسه لم يرها ولو مرة واحدة فى حياته .. لكن الزوجة لم تفهم هذا اللغز .. ولم تتوقف لسماع كلامه .. وصفعت الباب فى وجهه ، وغادرت البيت .

«كان ضابطاً صغيراً فى منطقة نائية على الحدود .. يعانى من الوحدة .. والقسوة .. والملل .. كل ما يربطه بالعالم سيارة عسكرية تأتى بالطعام لأفراد الكتيبة .. مرة كل أسبوع .. وفى إحدى المرات وجد مع سائق السيارة مجلة فنية عليها صورة هذه النجمة .. فوقع فى غرامها .. ووضع صورتها بالقرب من فراشه .. كانت أول وجه يراه فى الصباح .. وآخر وجه يراه قبل أن ينام .. ثم راح يحدثها عن أحلامه .. ورؤيته للناس .. ثم راح يشكو لها ما يفعله الناس به .. ثم .. وفى لحظة جياشة بالعواطف تجرأ وخطف منها قبلة .. وعندما وجدها تبتسم .. تمادى معها .. وظل على علاقة حميمة معها أكثر من ثلاث سنوات .. وعندما قرأ خبر

وفاتها .. تذكر أيامه القديمة معها التى مر عليها أكثر من ثلاثين سنة .. لكنه قال لنفسه بعد أن اطمأن على أن زوجته لم تعد فى البيت: «من المجنون الذى أوهمنا أن الحقيقة أجمل من الصورة .. إن امرأة فى مجلة خير من ألف امرأة فى البيت» .. أحياناً .

ونشر عزيز نيسين أول كتبه فى عام ١٩٥٥ وهو فى الأربعين من عمره .. واشترك مع الروائى التركى المعروف كمال طاهر فى تأسيس دار نشر أطلقا عليها اسم «فكر» .. كانت تدعو إلى الحرية فى مواجهة الديكتاتورية العسكرية .. وإلى التنوير فى مواجهة التكفير .. وكان ذلك فى عام ١٩٥٦ .. ولكن فى عام ١٩٦٣ احترقت دار النشر .. وبها ١١٠ آلاف كتاب وسجلت الحكومة الحريق «ضد مجهول» .

وقبل احتراق دار النشر بأيام نشر عزيز نيسين قصة قصيرة جداً فى نصف صفحة كتاب صغير الحجم أصبحت نكتة شهيرة فى العالم كله .. لقد أصطاد رجل سمكة .. فسارع بها إلى زوجته طالباً منها أن تقليها .. لكن الزوجة اعتذرت لعدم وجود زيت .. فقال الرجل لها: اشويها .. فاعتذرت الزوجة لعدم وجود ردة .. فطلب منها أن تسلقها .. فصرخت فيه الزوجة: لا نملك غازاً .. فحمل الرجل السمكة وراح إلى البحر وألقاها فى الماء .. فهتفت السمكة: «تعيش الحكومة» .

إن هذه القصة التى ترددت كنكتة دون أن نعرف مؤلفها الأصلى هى التى رشحت عزيز نيسين لجائزة «القنفذ الذهبى» التى أعطيت لأفضل كاتب ساخر فى بلغاريا فى عام ١٩٦٦ .. وسبق أن حصل على جائزة «بودجيرا» للكتابة الساخرة فى إيطاليا مرتين .. فى عامى ١٩٥٦ و١٩٥٧ .. وفى هذه الفترة عرفه العالم بعد أن ترجمت أعماله إلى ٢٤ لغة ونشرت كتبه فى ١٩ بلداً غير تركيا ومثلت مسرحياته فى ٧ بلدان أخرى .

إن واحدة من مسرحياته التى شهدها العالم تدور حول فلاح بسيط كان يدفع كل سنة رشوة لمهندس الرى حتى يسمح له بالماء المطلوب لأرضه .. وفى كل سنة كان المهندس يرفع قيمة الرشوة حتى جاءت سنة وعجز الفلاح الفقير عن دفع المطلوب منه .. فقرر أن يشكو المهندس لرئيسه .. وغضب الرئيس مما يفعله مرؤوسه وقرر ضبطه ومحاسبته فى قضية رشوة .. وبالفعل .. ما أن قدم الفلاح للمهندس الرشوة حتى هجمت الشرطة على مكتبه .. لكن المهندس تصرف بسرعة مذهلة وأخفى الرشوة وراء صورة حاكم الإقليم التى يعلقها فوق رأسه .. وفشلت قضية الرشوة ونجا منها .. وما أن خرجت الشرطة من مكتبه وبقى فيه وحيداً حتى مد يده وراء صورة حاكم الإقليم ليحصل على الرشوة وهو سعيد بما فعل .. لكن ما أثار دهشته .. أنه لم يجد المال الذى وضعه بنفسه منذ دقائق .. على أنه أحس أن الصورة لأول مرة تبتسم فى سخرية لم يلحظها من قبل .

وأجمل ما كتب عزيز نيسين قصة قصيرة عن عائلة تعيش فى بيت كبير .. لم تجد مانعاً من أن تؤجر حجرة منه .. ثم حجرة أخرى .. ثم حجرة ثالثة .. وهكذا .. جرى المال فى يد الأسرة .. وراحت تنفقه على أشياء لا لزوم لها .. لكن المستأجرين سرعان ما ضجوا بالشكوى من قلة المياه .. فوافقت الأسرة على أن تقترض منهم لإصلاح المياه .. ثم اقترضت منهم لإصلاح شبكة الصرف .. ثم اقترضت منهم لإصلاح طرقات الحديقة .. ولأنها عجزت عن السداد .. فقد سمحت بمزيد من الغرباء يدخلون البيت ويسكنون فيه .. ثم سمحت لهم بالسيطرة على الحديقة .

ثم تركت لهم كل البيت وسكنت فوق السطح .. ثم لم تجد مفراً من أن يعمل أفرادها فى خدمة هؤلاء الغرباء .. أصبحوا خدما لهم .. وهنا صرخ الابن الكبير: إن هذا البيت لم يعد بيتنا .. نحن الذين أصبحنا فيه غرباء .. لكن .. الأب غضب

بعنف على ما سمعه من ابنه .. وسارع بفتح خزانته السرية وأخرج منها ورقة قديمة تثبت أنه ورث البيت أباً عن جد .

وقد دخل عزيز نيسين السجن بعد نشر هذه القصة .. وقال المدعى العام العسكرى الذى كان يحاكمه أنه كان يقصد الوطن بهذا البيت .. وابتسم عزيز نيسين ابتسامة ساخرة وقال: مادمتم بهذه الفطنة فلماذا فتحتم أبواب وحجرات الوطن للغرباء حتى احتلونا بالديون وأصبحنا نحن الغرباء رغم سندات الملكية التى نحملها ونحن سعداء.

وتوزع كتب عزيز نيسين الآن أكثر من مليون نسخة سنوياً فى تركيا ومليون نسخة أخرى في باقى دول العالم .. لكن .. الرجل الذى عاش الفقر والقهر حتى أخرج البسمة من الظلام لم يعش ليستمتع بما يجنيه الناشرون من وراء ذلك .

وقبل الرحيل كتب عزيز نيسين إلى الموت .. زائره الأخير يقول: «لا تغافلنى فى النوم كما يفعل الجبناء .. وحين تأتى لا تتصرف كما يتصرف الضيوف ثقلاء الظل .. ولتكن إقامتك عندى قصيرة .. لا تجعلنى أشعر بك كدراً مزمناً .. التصق بجلدى وتسلل فى هدوء إلى روحى .

«تذكر أننى أنتظرك منذ بدأت أعى وجودى .. تعال محترما كما يليق بزائر طال انتظاره كل هذا العدد من السنين .. لا تضطرنى إلى فقد الاحترام الذى أكنه لك .

«عشت حياتى مرفوع الرأس .. ناصع الجبين .. فعانقنى واقفاً مرفوع الرأس حين تأتى لتأخذنى .. لا تنصب كميناً .. لا تطعن فى الظهر .. لنلتق واقفين كما يليق بالأصلاء .. كن سريعاً ورشيقاً .. يجب أن ينتهى كل شئ فى غمضة عين ..

«إنك واحد من أكثر حقائق الحياة حدة وحتمية ولا مجال معك لأى نوع من

المناورة والمداورة .. أنت تعرف أننى لم أشعر بالغيرة من الذين عاصرونى فى حياتى كلها .. لا لأننى طيب القلب بل لأننى لم أر أحداً أكبر منى .. وتعرف أيضاً أننى كثير الاعتزاز بما فعلت وبما خططت له ولم أستطع تحقيقه .

كلانا مناضل صمد فى وجه غريمه .. كلانا كافح ضد الآخر كل هذه السنين دونما توقف ولعلى أشير هنا إلى أن نضالى أنا كان أعظم وأكبر من نضالك أنت .. ذلك لأنك كنت واثقاً من البداية من أن النصر فى النهاية سيكون مهما حصل إلى جانبك .. فى حين كنت أنا أعلم علم اليقين بأن الهزيمة فى نهاية المطاف ستكون من نصيبى .. ألم أبق مصراً على اقتحام مواقع ذاك الذى سيهزمنى كما لو كنت غير مرشح للهزيمة أبداً رغم معرفتى الأكيدة بأننى مهزوم ولا محالة ؟ ..

هل انتابنى الخوف ولو للحظة ؟ .. هل فكرت فى الهروب ؟ .. هل قدمت لك أى تنازل مهما صغر بغية أن أعيش أكثر .. بغية أن أحيا حياة أفضل .. بغية أن أحصل على المزيد من مفاتن هذه الدنيا الرائعة فى جمالها ؟ .

«تسألنى ماذا فعلت ؟ .. إليك جوابى .. كيميائيو العصور الوسطى عجزوا عن قلب الحجر إلى ذهب .. أما أنا فكيميائى نجحت فى قلب دموعى إلى ضحكات قدمتها إلى العالم» .

٦ فعلا .. غدر به الجميع !

كنت اتصورها أمرأة كالدهشة فى أرض البشر .. تحمل فى يدها قصيدة حب رومانسية .. وتحمل فى اليد الأخرى سجادة صلاة .. لكننى اكتشف أنها تتعامل مع الرجال كما تتعامل مع طوابع البريد .. وأن لديها مجموعة من أغرب الطوابع .. وأندر الطوابع .. تلصقها على حدود القلب .. وحين تصاب بالملل .. تنزعها .. وقد كان الملك فاروق هو أول هذه الطوابع .. ولكنه لم يكن أخرها ولا أندرها .. كان فى حياة الملكة فريدة طوابع أخرى .. سرية وخفية .. مصرية وأجنبية.

منذ سنوات أهديت الكاتب الصحفى المتصل البريق محمد حسنين هيكل كتابى عن «أخر ملوك مصر» .. الملك أحمد فؤاد الثانى .. الملك الرضيع الذى تولى عرش مصر وهو فى «اللفة» .. وسقط من عليه وهو لا يعرف أنه قد أعتلاه .. وبعد أن قرأ هيكل الكتاب قال لى: «إن ملاكك الحارس لم يكن كما صورته فى الكتاب» .. كان يقصد الصورة الزائفة الخادعة التى كانت عليها الملكة فريدة .. وكان يشير إلى الخطأ الشائع ـ الذى وقعت فيه ـ عن براءتها ووداعتها .. وأنها كانت مثل الخط المستقيم .. ولم تكن مثل الخط المشرشر .. وكانت حجتى فيما تصورت وكتبت

المظاهرات الشعبية التى خرجت بعد طلاقها من الملك فاروق والتى كانت تهتف فى الشوارع وأمام قصر عابدين: «فريدة خرجت من بيت الدعارة إلى بيت الطهارة».. إنه حكم الدفاتر القديمة .. لكن.. كان هناك فى جراب التاريخ أسرار جديدة.

فى كتابه «المفاوضات الرسمية بين العرب واسرائيل» يستخرج هيكل من الوثائق البريطانية ما يجعله يؤكد ويقول بصورة قاطعة أن الملكة فريدة كانت زوجة «غير مخلصة لزوجها» رغم «محاولات لا لزوم لها لرسم صورة مغايرة».. «إن التماثل فى السن بينها وبين زوجها الملك فاروق خلق ـ على ما يبدو ـ لديها حاجة إلى رجل أكثر نضجا .. وكان أن وقعت فى غرام وحيد يسرى (باشا) وهو بمثابة أبن عمة الملك .. والأسوأ أن أمه الأميرة «شويكار» هى الزوجة الأولى للملك فؤاد» .. وقد كانت أول من زين للملك فاروق الفساد.

ويستطرد هيكل: «لكن مشكلة الملكة فريدة كانت فيما يبدو أعمق من ذلك .. فوثائق القصر والسفارة البريطانية والخارجية البريطانية تربطها بعلاقة غير شرعية مع ضابط بريطانى اسمه الكابتن سيمون إلويس .. وكان قبل الحرب رساما له مستقبل .. وقادته خدمته فى مصر إلى التعرف على بعض العائلات الكبيرة بها .. ورسم بالفعل صوراً لبعض شخصياتها بما فى ذلك صورة للسيدة ناهد سرى وهى قرينة حسين سرى باشا ـ الذى كان رئيساً للوزراء ـ وفى نفس الوقت خالة الملكة فريدة .. وهكذا فان سيمون إلويس دخل القصر أول مرة يرسم صورة زيتية للملكة ثم تذرع بأن زحام القصر يفسد الهامه فدعاها إلى تكملة الصورة فى «مرسمه» وتطورت الأمور بين الأثنين .. وحين انكشفت العلاقة قام السفير البريطانى نفسه بالتحقيق مع الضابط الفنان الذى بلغ به السخف حد أن يقول: «إنه لا يستطيع أن يرسم صورة إلا إذا أحس مباشرة بموضوعها» .. (ويبدوا أن ميكروب الرسم الذى

احترفته فيما بعد قد تسلل إليها من هذه العلاقة) .. وقد جرى ترحيل هذا الضابط إلى جنوب أفريقيا في ظرف أربع وعشرين ساعة .. وكان ذلك في ربيع عام ١٩٤٣.

وبهذه الضربة القاسية التى تلقاها الملك فاروق على ظهره انكسر تماما .. وفقد سلامته النفسية .. ومن ثم فقد صلاحيته السياسية .. وتحول من ملك شاب يتفاءل به الشعب إلى مريض بالاضطراب والشك وفقدان الثقة فى الذات وبداء السرقة والقمار ويخطف ما فى يد الآخرين من نساء وأشياء ثمينة .. وتحول قصر عابدين من مقر السلطة إلى مصلحة للأمراض العقلية .. لكن .. من الذى كان يجرؤ على أن يقول للملك: إنك مريض يامولاى وأنك فى حاجة إلى علاج عاجلٍ .. لا أحد جرؤ على أن ينصح الملك بما يعيد إليه التوازن النفسى والسياسى .. بل راح الجميع ينفذون من الثغرات التى بدت مكشوفة لهم .. ويلعبون على الأوتار المغرية بعزف سيمفونية الفساد النحاسية الصاخبة .. وهى اللعبة المفضلة للحاشية فى كل زمان ومكان.. أن ينفخوا فى الحاكم حتى يطير .. أن يعزلوه عن الناس فلا يراهم ولا يسمعهم ولا يشعر بهم .. وعندما تغرق المركب .. تكون الحاشية مثل الفئران أول من يفكر فى النجاة والهرب .. ولكن لا أحد يتعلم الدرس إلا بعد فوات الأوان .. إنها مأساة يجسدها الملك فاروق الذى غربت شمسه فى مثل هذه الأيام قبل ٤٨ ساعة.

لم تكن خيانة «فريدة» .. الزوجة .. هى الضربة الأولى التى تلقاها فاروق على ظهره .. سبقتها خيانة أخرى .. ارتكبتها «نازلى» .. أمه .. إن نازلى التى كانت تكره زوجها الملك فؤاد مشت «على حل شعرها» بعد وفاته .. باعت ثيابه فى سوق «الكانتو» .. فكان باعة «الروبابيكيا» ينادون فى الشوارع «بدلة الملك بجنيه» .. ولم تتردد فى غواية أحمد حسنين رئيس الديوان الملكى .. والذى نجح فى أن يتزوجها فى السر بعد أن رفض دور «العشيق» .. فدور «الزوج» فى كواليس القصر وحجراته

الخلفية أقوى وأبقى .. وقد كان أحمد حسنين يعرف أن السيطرة على الملك فاروق تبدأ بالسيطرة على أمه.. وقد روى لى أمين فهيم السكرتير الخاص للملك فاروق والذى ظل معه حتى فى المنفى ـ وسجلت ما رواه بالصوت والصورة ـ كيف أن الملك فاروق كان يتسلل على أطراف أصابعه إلى جناح أمه وهو يحمل مسدسا فى يده ليضبطها وهى فى أحضان أحمد حسنين .. والرواية الشائعة أنه عندما وصل إلى غرفة نومها وجد أحمد حسنين يعلمها قراءة القرآن .. ولكن الرواية الحقيقية ـ على لسان شاهد العيان أمين فهيم ـ أن الملك ضبطها مع أحمد حسنين فى وضع لا يليق .. وقبل أن يضغط الملك على الزناد فتح أحمد حسنين قبضة يده وأخرج منها صورة عقد الزواج .. لقد كان أحمد حسنين يضع العقد فى يده أربع وعشرين ساعة .. ولم يكن هذا العقد هو عقد زواج بأم الملك .. عقد تحكم فيه.

لقد كان أحمد حسنين واحداً من أثنين اختارهما الملك فؤاد للاشراف على تربية أبنة فاروق .. ورافقاه فى رحلة العلم التى لم تكتمل فى بريطانيا .. وكان الآخر هو عزيز المصرى .. وقد كان عزيز المصرى صارما مستقيماً .. على عكس أحمد حسنين الذى كان فاسداً متساهلا .. وهو ما أصاب فاروق بتناقض حاد عانى منه فيما بعد .. «وعانت منه مصر».

إن فاروق الذى بدأ حياته على العرش شاباً ذكياً قادراً على تعويض ما فاته من علم وثقافة سرعان ما وجد من يزين له الفساد .. ويحرضه ويجبره عليه نفسياً وواقعياً .. وقبل أن يصلب عودة كسرته أمه وهشمته ونثرت شظاياه فى كل مدينة فى مصر.. لم تدرك الملكة نازلى مسئولية حماية العرش والنظام .. وفتحت الباب أمام شهواتها على مصراعيه .. كانت لا تتردد فى أن تقول: إنها عاشقة محرومة.. وأنها فى حاجة إلى الحب .. «والحب لا تصنعه إلا التجارب .. تماماً مثل البحر لا تصنعه إلا المراكب .. ومثل الحرب لا يصنعها إلا المحارب .. أنا مجنونة بالحب ..

ولكن اذا سألونى عنه فأنا أفضل ألا أجيب».

وقد غادرت نازلى مصر عندما راح فاروق يضيق الخناق عليها .. وقد سألها مصطفى أمين وهى فى الولايات المتحدة: «متى تعودين إلى مصر؟» .. فقالت: «عندما يعود فاروق إلى عقله» .. ثم أضافت: «نحن نبنى الأصنام من الشمع ثم نبكى بعد ذلك إذا ذابت من الشمس .. لقد بنى المصريون فاروق من الشمع وهم فى دهشة لأنه يدوب.. ولكنى لم أشك أن هذا سيحدث يوماً ما .. لقد نفخ الذين حول فاروق فيه .. ولا يزالون ينفخون .. وسيجئ يوم ويفرقع .. وكثيراً ما كنت أقول له لا تسمع أقوال الذين يزينون لك الأشياء السيئة التى تفعلها .. فكان يثور ويغضب .. ولقد يئست من اصلاحه .. ولهذا رأيت أن أبتعد عن مصر .. لأننى أعتقد أنه سيجئ يوم يعرف فيه الناس خارج القصر ما يعرفه من هم فى داخله .. وعندئذ ستكون الكارثة».

والحقيقة أن نازلى كانت بداية الكارثة .. سواء فى القصر أو فى خارجه .. سواء فى مصر أو فى خارجها .. ويروى مصطفى أمين: كان على رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى السفر إلى نيويورك فى يوم الأثنين ١٤ يوليو ١٩٤٧ لعرض مشكلة مصر على مجلس الأمن .. وسأله الملك فاروق: «هل أنت مستعد لهذه المهمة الصعبة؟» .. فقال النقراشى: «كل شئ استعددت له .. وأنا مستعد لأى مفاجأة ولكن هناك شيئا واحداً أنا غير مستعد له» .. فتساءل فاروق فى دهشة: «وما هو» .. فقال النقراشى: «والدتك الملكة نازلى إننى لا أريد أن أكون فى الولايات المتحدة وهى هناك .. إننى أخشى أن تفعل «فصلا بارداً» بينما أعرض قضية مصر على مجلس الأمن» .. فتساءل فاروق مرة أخرى: «وماذا يمكن أن تفعل؟» .. فقال رئيس الوزراء: «أخشى أن تذهب إلى كباريه وترقص هناك أو تدلى بتصريح أو تقول عبارة لا تتفق مع جلال الموقف الذى نحن فيه» .. وطالبه الملك أن يعيد أمه إلى مصر ..

لكن النقراشي باشا قال له: «إن مهمتي هي إجلاء الانجليز عن مصر .. لا إجلاء الملكة نازلي عن أمريكا»..

وأغلب الظن أن إجلاء نازلي عن أمريكا كان أصعب من إجلاء الانجليز عن مصر .. لقد قررت نازلي في سنواتها الأخيرة في الولايات المتحدة أن «ترتد عن الاسلام وأن تتنصر وتعتنق المذهب الكاثوليكي .. وقد أثرت نازلي على ابنتيها اللتين عاشتا معها في أمريكا وهما فايزة وفتحية وكل منهما ماتت وهي مسيحية كاثوليكية» .. وفتحية بالذات ماتت مقتولة .. قتلها رياض غالي .. ثم أطلق الرصاص على نفسه وأنتحر .. وهكذا .. تحولت العائلة الملكية إلى كتيبة أعدام شديدة القسوة .. وشديدة الأنانية .. ومعدومة الرؤية .. فلم تكن تدرك أنها تغتال الجالس على العرش فقط .. وإنما تغتال النظام الملكي بأكمله في مصر .. وأثبتت دون أن تقصد نظرية المؤرخ الشهير «أرنولد تويني» عن سقوط النظم والحضارات.. وهي نظرية تقوم على أساس أن المتعة الحسية التي يغرق فيها الحكام والنظم والحضارات تولد طبقات من الفساد السياسي والاقتصادي يعبر عنها أصحاب المصالح الضيقة حولهم يزينون لهم كل شئ بعيداً عن القانون وحقوق السواد الأعظم من الناس .. وفي اللحظة التي تتمكن فيها المتعة الحسية من النظام السياسي الفاسد يتحول إلى نظام من «كرتون» يسهل سقوطه مع أول ريح تهب عليه .. وهو ما حدث للنظام الملكي في مصر..

إن نصابا مغامراً مثل رياض غالي نجح في أن يمد شباكه إلى الملكة نازلي .. ثم نجح في إقناعها بأن تزوجه ابنتها فتحية، لقد كان رياض غالي موظفاً في الخارجية .. وقد تعرفت عليه الملكة الأم في مرسيليا عندما انتدب ليكون في خدمتها خلال رحلتها هي وفايزة وفتحية إلى فرنسا في منتصف عام ١٩٤٦ .. وكانت مواهبة هي شدة الأناقة ورشاقة الرقص وبراعة البروتوكول .. والخنوع حتى التمكن.. وقد قبلت نازلي أن ترقص معه في الملاهي والحانات .. ولم تستجب لتحذيرات

أبنها ولا لشكواه .. وكل ما نجح فاروق فيه هو أنه طرد رياض غالى من وزارة الخارجية فعينته نازلى سكرتيراً خاصاً لها بمائة جنيه .. وأرسلت خطابا إلى فاروق شديد اللهجة تتهمه فيه بالظلم والاستبداد .. وتقول له :« إن رياض غالى لم يموت من الجوع وأنها ستدفع له أضعاف مرتبه» .

ولم يكن رياض غالى يحلم بنازلى ولكن كان يحلم بفتحية .. ولكنه كان يعم أنه لن ينال قلب فتحية إلا برضاء نازلى .. بكل ما تعنيه الكلمة .. وبكل ما توحى به .. وقد كانت فتحية التى كانت فى السادسة عشرة من عمرها ترى فيه ـ فارسا من فرسان القصص والروايات الغرامية .. وقد تحول هذا الفارس إلى زوج عندما عثر لها على «مشبك» من الألماس كان قد سقط منها فى أحد المسارح .. وبهذا المشبك شبك قلبها .. ثم زاد اعجاب فتحية به عندما وجدته يشترى مسدساً سريع الطلقات ليحميها ويحمى الآم الملكة .. ولم يخطر على بالها أن هذا المسدس هو الذى ستقتل به .. وأن الخطر الحقيقى سيكون أقرب إليها مما تتصور .. سيكون من الذى تطوع لحمايتها .

ووصلت سيطرة رياض غالى على الملكة نازلى إلى حد أنها قالت: «أنها إذا أرادت أن تختار بين صداقتها لرياض غالى وأمومتها لفاروق فانها تختار صداقة رياض غالى .. لأن فاروق أثبت فى كل مناسبة أنه ولد عاق .. أما رياض فقد أثبت أنه ولد مخلص» .. ولم تتردد نازلى فى أن تصف ابنها بالجنون علنا فى أحاديثها الصحفية .. فخرجت أحدى الصحف الأمريكية تقول على لسانها «أبنى مجنون» .. وقالت .. «إن أبنها أصيب بمرض السرقة والاغتصاب وأنه أصبح يريد أن يسرق كل انسان وكانت تشيد بوفاء وإخلاص رياض غالى الذى لم يستحوذ على عقل نازلى وقلب فتحية فقط وإنما استحوذ على أموالهما ومجوهراتهما .. » وأصبح المتحكم فى كل شئ .

وفى مذكرات كيرميت روزفلت مسئول المخابرات الأمريكية عن الشرق الأوسط أنه لم يصدق تهمة الجنون التى رمت بها الملكة نازلى أبنها الملك فاروق .. وقد كان روزفلت يتصور أن الملك فاروق يمكن أن يقوم بثورة سلمية يطهر بها نظام حكمه الفاسد .. ويحسن من صورته بمساعده رجال فى الصحافة والأمن والحكومة مدوا جسورهم الخفية مع المخابرات الأمريكية .. وجاء كيرميت روزفلت إلى مصر وعن طريق كريم ثابت وجرت مقابلة مع الملك فاروق .. ولكن كيرميت روزفلت رفع تقريراً لقيادته فى واشنطن يؤكد فيه: «أن الملك فاروق مثله مثل أى حاكم مخنوق بالبطانة الفاسدة لم يفهم الخطر المحدق به وبنظامه .. وكل ما راح يتحدث فيه هو مجموعة السيارات والبنادق التى يمتلكها .. إنه من أصحاب العقول غير الثقيلة .. ولكن ما وصل إليه كان بسبب الذين حوله .. فكلهم بلا استثناء استغلوه .. واستفادوا منه .. وحطموه .. وغدروا به».

ولم يأخذ فاروق من نصائح كيرميت روزفلت سوى إطلاق لحيته وادعاء أنه من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم .. فى محاولة لتحسين صورته .. ونجح فى أن يجد من بين الشيوخ من هو مستعد أن يبيع ضميره ويثبت ذلك .. ولم يتجاوز تفكيره هذه الصورة الشكلية .. لا هو نجح فى أن يحارب الفساد الذى حول نظامه إلى نظام هش ينخر فيه السوس .. ولا هو عالج نفسه من أمراضه النفسية والعقلية التى كسرته وحولته إلى بقايا انسان ..وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يقوم ضباط الجيش بما قاموا به فى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. ولم يكن من الصعب أن ينجحوا فى تحطيم وإسقاط النظام بهذه السهولة التى جرت .. فقد كان النظام قد انتحر .. ولم يكن على جمال عبد الناصر ورفاقه سوى دفنه وتشييعه إلى مثواه الأخير.

٧ وداعاً جنرال .. أهلاً مولانا !

فى مثل هذه الأيام .. منذ ٢٠٠ سنة .. فهم نابليون اللعبة مبكراً .. لعبة الدين والسياسة .. فهم أن الطريق إلى قلوب المصريين يبدأ بالمسجد وينتهى بالضريح .. فأعلن أنه من أولياء الله .. وأصفياء الله .. والناطق باسم الله .

لكن .. بينه وبين نفسه كان يؤمن بأنه «دجال» .. وفى منفاه فى «سانت هيلانة» اعترف فى مذكراته بأن ما فعله فى مصر هو «دجل من أعلى طراز» .. ثم .. استطرد «إن على الإنسان أن يصطنع الدجل فى هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد للنجاح» !

كانت الأحلام تملأ رأسه .. أحلام النبوة والامبراطورية .. مثل الاسكندر الأكبر.. الجنرال الذى تحول فى مصر إلى إله فى مملكة «آمون» .. وقد نقل عن نابليون .. أنه فى مصر شعر بأنه «يؤسس ديانة جديدة ويزحف على آسيا وهو يمتطى فيلا وعلى رأسه عمامة وفى يده كتابه المقدس الجديد» .

تصور نفسه نبياً .. أو أقنع نفسه بذلك .. أو فهم أن لا سيطرة على مصر دون أن يرتدى عباءة الله .

وهذا فى رأيى أخطر ما فى الحملة الاستعمارية الفرنسية على مصر .. إنها لعبة

استخدموا فيها الدين قبل الديناميت .. والقرآن قبل مدفعية الميدان .. والمشايخ قبل الجنود .. والموالد قبل البوارج.

وقد ركزت اهتمامي على هذا الجزء الخفي من جبل الجليد قبل خمس سنوات ونشرت كثيراً من بواطن الأمور في كتاب «صلاة الجواسيس» عن استعمال النبوءات في تنفيذ مؤامرات أجهزة المخابرات .

لقد أنفق نابليون- خلال الرحلة إلى مصر- معظم وقته في دراسة الكتب المقدسة التي كان يعتبرها كتباً سياسية .. وقد سجل في مذكراته فقرة تكشف طبيعة المؤامرة في رأسه وهي: «أن الأفكار الدينية كانت على الدوام مسيطرة على الشعب المصري في شتى العصور .. وقد أثار انتباهي أنه عندما جاء الاسكندر الأكبر كان يفهم هذه العقلية فزحف عبر الصحراء من الاسكندرية إلى معبد آمون في مدة لم تزد عن أسبوعين دون مقاومة لأنه أعلن إيمانه بالآلهة المصرية .. وقد حقق بهذا الادعاء أكثر مما كان سيحققه لو بنى عشرين حصناً وعزز جيشه بمائة ألف مقاتل مقدوني» .

لكن نابليون رغم ذلك جاء إلى المصر بحوالي ٣٥ ألف جندي وبحار وألف مدفع و٥٦٧ عربة و ٧٠٠ حصان و ١٠٠ ألف رصاصة و ٤٤٠ سفينة وفرقاطة . في أسطول كان يشغل مساحة في البحر تقترب من أربعة أميال مربعة .

وفي ٢٨ يونيو ١٧٩٨ عندما بدت الاسكندرية على مرمى البصر فاجأ نابليون جنوده بالمنشور الشهير الذي صاغه بنفسه قبل ستة أيام وأثبت فيه قدرته الفائقة على مزج الدين بالسياسة .. والإيمان بالرصاص .. والفكرة بالقنبلة .. لقد طالب جنوده بتوقير المشايخ .. والتسامح نحو الشعائر .. والامتناع عن السلب والنهب .. وتجنب العار في هتك أعراض النساء .

بالقرب من شاطئ «العجمي» طبع نابليون أول منشور سياسي وديني للمصريين لم يتردد من خلاله في أن يشهر إسلامه وأن يقرأ الشهادة ويسجل على نفسه عدم الشرك بالله .. لكن المنشور لم يخل من الاحتيال .. فهو يطالب المشايخ والأئمة

والقضاة بأن يقولوا للناس «إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون» .. وقد سخر علماء الحملة وقادتها من المنشور لكن نابليون لم يعبأ بسخريتهم .. وفيما بعد اعترف هؤلاء بأن المنشور أحدث أثراً كبيراً .. وكان «تأثيره فى المصريين كالسحر» على حد قول كريستوفر هيرولد فى كتابه المعروف الممتع «بونابرت فى مصر» الذى ترجمه إلى العربية برشاقة وبراعة فؤاد اندراوس ونشرته هيئة الكتاب .

ومع أن نابليون أعلن على الملأ أنه مسلم فإن المصريين ظلوا يعاملونه معاملة الكفار .. ونجح المشايخ فى الايحاء بأن نابليون جاء ليقضى على الإسلام .. وهو ما جعله يحذر خليفته كليبر منهم وقال فى إحدى رسائله إليه «إننا إذا كسبنا تأييد كبار شيوخ القاهرة كسبنا الرأى العام فى مصر كلها .. فليس من زعماء الأمة كلها من هو أخطر علينا منهم .. فهم يوحون ـ مثل جميع رجال الدين ـ بالتعصب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين» .

وحاول نابليون أن يكسب ثقة المشايخ فى البداية .. فعين ديواناً من كبار المشايخ غداة دخوله إلى القاهرة .. وفى أول لقاء معهم حاول نابليون أن يضع وشاح فرنسا بألوانه الثلاثة .. الأبيض والأحمر والكحلى على كتف رئيس الديوان الشيخ عبد الله الشرقاوى .. لكنه فوجئ بوجه الشيخ يحمر غيظاً ويرمى بالوشاح على الأرض .. وفى النهاية توصل المشايخ إلى حل وسط هو أن يضعوا على صدورهم شارة «الجوكار» المثلثة الألوان .. فتعودوا أن يشبكوا الشارة قبل أن يدخلوا حجرة نابليون ويخلعوها عند مغادرتها .

على أن أشد الأزمات بين نابليون والمشايخ كان سببها الشيخ محمد كريم الذى اختاره نابليون حاكماً للاسكندرية لكنه لم يتعاون معه فاستبدله بالشيخ المسيرى وارسله مخفوراً إلى حامية نابليون الذى حكم بإعدامه .. ثم خيره بافتداء نفسه بمبلغ ١٢٠ ألف فرنك ذهبى .. لكن محمد كريم رفض .. فقتل رمياً بالرصاص فى القلعة وحمل رأسه ليعرض على الملأ فى الشوارع .

وبينما دخل الشيخ كريم التاريخ من أجمل أبوابه فإن الشيخ البكرى دخله من

أسوأ أبوابه .. لقد اخترق نابليون التقاليد المصرية الصارمة ونجح فى استمالة «زينب» ابنته وكان عمرها ١٦ سنة .. وتوصف زينب البكرى بأنها كانت النسخة المصرية من جوزفين .. عشيقة نابليون ثم زوجته .. إن أحد رفاق نابليون يصف زينب بأنها كانت «جسداً مثل عود النعناع الأخضر .. وحياء فى لون القمح يشتعل فى الظلام من شدة الأنوثة .. وهى تحمل إيماناً تاريخياً بأن الرجل هو الفرعون المقدس الذى تمنحه المرأة الطاعة العمياء حتى فى المعصية» وقد أغمض الشيخ البكرى عينيه وسد أذنيه وراح وهو يحتسى البراندى الفرنسى كل ليلة يحلم بأن يصبح «حما» نابليون .. السلطان الأعظم» .

وعندما اضطر الفرنسيون للجلاء عن مصر فى سنة ١٨٠١ أراد غلاة المؤمنين معاقبة النساء اللاتى «عاشرن الكفار» .. وكانت زينب البكرى ، احدى ضحاياهم وقد عرفت فى أيام عزها بفتاة القائد المصرية .. ولابد أن صلاتها بنابليون كانت قصيرة .. وكذلك حياتها .

عشرينة طلبت ابنة الشيخ البكرى وكانت ممن تبرج مع الفرنسيين بمعينين من طرف الوزير .. فحضروا إلى دار أمها بالجوادرية بعد المغرب وأحضروا والدها فسألوها عما كانت تفعله .. فقالت: انى تبت عن ذلك .. فقالوا لوالدها ما تقول أنت؟ فقال: أقول أنى برئ منها .. فكسروا رقبتها ـ عبد الرحمن الجبرتى «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» .. الجزء الثانى .

ولم تكن هذه القصة الغرامية سوى دليل طفيف على لعب نابليون بالمشاعر الدينية .. أما الدليل الساطع الحارق كالشمس فهو دخوله إلى الأزهر هو وجنوده بالخيول التى ربطوها بقبلته .. وكسروا القناديل .. وهشموا خزائن الطلبة .. ونهبوا متاعهم .. ودشتوا الكتب والمصاحف .. ان نابليون المسلم الورع التقى حول الأزهر الى إسطبل .. وكباريه .. وحمام شعبى لقضاء الحاجة .. ونسى رسالته الحضارية التى جاء يبشر المصريين بها وتحول هو ورجاله من سادة مهذبين إلى قطاع طرق !!!

لقد كان مثل الحرباء .. يقدر أن ينقلب من شيخ إلى مقاتل .. ومن قائد إلى

سفاح .. في لحظة واحدة .. وقد كان في ليلة الاحتفال بالمولد النبوى يترنح كالدراويش على ايقاعات الدفوف في إحدى حلقات الذكر .. وفي صباح اليوم التالي أصدر تعليماته في هدوء بتحويل مسجد الصالحية إلى ثكنة عسكرية !!

ومع أن المشايخ هم الذين قاوموه وأعلنوا حرباً دينية عليه فإن بعضهم أيضاً هو الذى ساعده في تهدئة المصريين وتخفيف العداء للفرنسيين وقال في روايته لتاريخ حملته على مصر «أنهم أدوا بذلك خدمات إيجابية للجيوش الغازية وكان المقابل بسيطاً ، بغالاً وعطايا ولقاء يومياً يشربون فيه القهوة والشربات معى .. وقد كنت أناقشهم كثيراً في القرآن .. وأطلب منهم تفسيراً لبعض آياته ، وقد كنت أردد دائماً أن أفعالي تنبأ بها القرآن ، ومن جانبهم أعربوا عن محبتهم .. فقد كنت في رأيهم «مقداراً من عند الله» .. ولكن .. هذه المحبة لم تكن بالاجماع .. فكثير من الأئمة في المساجد كانوا يهاجمونني في خطبة الجمعة .. وأصدروا فتوى بمقاطعة الفرنسيين وقتالهم ولم ينج من هذا المصير إلا الفرنسيون الذين أسلموا وتزوجوا من مصريات وطلبوا الاستقرار» .

ولا جدال في أن المواجهة التي جرت بين الشيخ الشرقاوى كبير علماء الأزهر ونابليون تستحق التسجيل .. لأنها كشفت الغطاء عن لعبة استعمال الدين «البونابرتية» في السياسة الاستعمارية .

قال الشيخ الشرقاوى: «انك تطلب رعاية الرسول الذى تقول إنه يحبك وتريد العرب والمسلمين أن ينضموا تحت رايتك وترغب في استرداد أمجاد العرب وأنك لست مشركاً ولا وثنياً .. فاعتنق الإسلام إذن .. انك لو فعلت ألف عربي ولاستطعت وأنت قائدهم ومنظمهم أن تفتح بهم الشرق وتسترد وطن الرسول بكل أمجاده» .

وبهت نابليون .. وأحس أنه وقع في الحفرة التي حفرها لغيره .. انه يقول انه يحكم بأمر الله لا بأمر نفسه .. والمطلوب أن يوقع على أقواله .

والحقيقة أن نابليون عمل حساب هذا المأزق من قبل .. فقد أشاع بعد شهر من

غزوه مصر أن النبى (صلى الله عليه وسلم) ظهر له فى المنام وقال له: «إجهر بايمانك بأركان دينى لأنه دين الله .. ان العرب فى انتظار هذه العلامة .. وسأخضع آسيا كلها لسلطانك» .

واستطرد نابليون أنه التمس مهلة سنة من الرسول الكريم يعد فيها جيشه فمنحها له الرسول وأنه تعهد بأن يبنى مسجداً عظيماً وأن سيقنع جيوشه باعتناق الإسلام وأن اثنين من كبار الشيوخ هما الشيخ السادات والشيخ البكرى يعتبرانه مسلماً فعلاً .

وأضاف: أن هناك عقبات تحول دون اعتناقه هو وجنوده الاسلام .. منها الختان وشرب الخمر .. فرجاله الذين الفوا شرب الخمر طوال حياتهم لن يرتضوا الزهد فيها .. وهم كذلك لا يرون ضرورة للختان .

وكان رد الفقهاء الذين أطلعهم على هذه الحجج أكثر مرونة وأكثر ذكاء مما كان متوقعاً .. لقد أرادوا سد الذرائع وكشف اللعبة حتى آخرها .. فأفتوا بأن الختان «نافلة» وليس ضرورة .. أما الخمر فقد يشربها الإنسان وهو مسلم .. «وإن يكن فى حالة من الاثم لا تجعله أهلاً للاستمتاع بمباهج الجنة» .

ووجد نابليون فى فتواهم ثغرة ، نفذ منها قائلاً: «اننى مقتنع بالأمر الأول .. لكنكم لابد تقصدون المزاح فى الأمر الثانى .. فلماذا يعتنق إنسان ديناً يحكم عليه بالهلاك فى الجحيم لأنه يواصل ممارسة عادة لا ينوى الاقلاع عنها؟» .

وحسب ما نشره كريستوفر هيرولد فإن الفقهاء طلبوا منه مهلة ليختلوا إلى أنفسهم وكتبهم ليعيدوا النظر فى المشكلة .. طالبين المعونة من الله لينير بصائرهم .. وأخيراً أصدروا فتوى ثانية مؤداها: «إن فى وسع الفرنسيين أن يشربوا الخمر ويدخلوا رغم هذا الجنة بشرط التكفير عن هذا الاثم بالتصدق بخمس دخلهم بدلاً من العشر المألوف» !!

ولا يذكر نابليون بالتحديد متى صدرت الفتوى الثانية .. ولكن فى سياق الأحداث التى يذكرها رستم رضا ، مملوك نابليون الشهير فى مذكراته المثيرة .. أنها صدرت

خلال غيابه فى الشام فى ربيع ١٧٩٩ .

وبعد عودته للقاهرة أصدر علماء الأزهر بياناً يزعم أن نابليون .. السلطان الكبير «يحب المسلمين ويعز الرسول ويهذب نفسه بقراءة القرآن الكريم كل يوم ويريد بناء مسجد لا نظير له فى بهائه وفخامته ويود اعتناق الإسلام .

ويصر نابليون على أن هذا البيان صدر بناء على أوامره .. لكنه يضيف «أن المشايخ لم يستبعدوا أن تتحقق المعجزة واعتنق الإسلام» .. وقد اعتنق الإسلام الجنرال مينو وأصبح اسمه عبد الله .. ولكن مينو لم يفعل ذلك حباً فى الإسلام .. وإنما حباً فى النساء.

ويعتقد بعض المؤرخين أن سياسة نابليون الدينية لم تقم على المصلحة فقط وإنما قامت على قناعة مستقرة فى أعماقه .. «لقد كان مخلصاً فى احترامه للإسلام لأنه ينبع من موقفه العملى البحث عن الدين» فقد قال أمام مجلس الدولة فى فرنسا فى عام ١٨٠٦ «إننى أرى فى الدين سر النظام الاجتماعى» .. وكان «الإسلام فى رأيه هو الأنسب» .. لأنه لا يشجع الصراع بين العالمين المادى والروحى .. الأرضى والسماوى .. وقد سبق أن قال للشيخ المسيرى أنه ينوى «إقامة حكومة موحدة تقوم على مبادئ القرآن القادرة على اسعاد الناس» .

لكن .. نابليون نفسه يعترف بأنه «دجال» ويستخدم هذه الصفة بوضوح فى مذكراته ثم .. انه يعترف أيضاً بأنه عندما انكشف أمره وجد نفسه هو والمشايخ يلعبون لعبة «الاستغماية» .. فقد لعبوا معه نفس اللعبة .. بنفس الطريقة .. المراوغة وإدعاء الصداقة وبذل الوعود الكبيرة دون الوفاء بها وصياغة الأهداف الدنيوية صياغة دينية .. ومن يومها واللعبة تتكرر .

على أنه لأن اللعبة كانت سياسية فقد انتهت لأسباب سياسية .. جيش ضعيف .. ضائع .. فى بلد فقير .. ودولة كبرى هى انجلترا ترقب ما يجرى فى انتظار اللحظة المناسبة للانقضاض .. وقائد محبط .. وشعب ليس لديه ما يخسره .. فقرر الثورة .

وهكذا .. غادر نابليون مصر سراً .. تاركاً كليبر ليلقى مصيره .. الفشل والقتل .. وراحت الدوائر تدور حتى أصبحت الحملة الفرنسية صفحة فى كتب التاريخ المدرسية .. ولكن .. ما لا تقوله هذه الكتب أن نابليون فهم أن الدين فى الشرق أهم من المدفع وأن الشريعة تسبق الاستراتيجية وأن الفقيه أخطر من الجنرال .. ولكن لم يفهم أن «الشعب المصرى بتكوينه الطبيعى وميراثه الوطنى والخلقى والنفسى شعب يتسم بالوداعة والقناعة والارتباط بالجذور .. وهو مثل النيل لا يقبل الانعطافات المفاجئة ولا الانحرافات الحادة .. ولا المغامرات غير المتوقعة .. ولذلك فان كل الذين حاولوا القفز فوق الخطوط الحمراء التى رسمها التاريخ .. سقطوا .. وانكسرت أعناقهم» .

والمثير للدهشة أن نابليون لعب نفس اللعبة فى فلسطين .. لكنه لم يلعبها مع المسلمين هذه المرة وانما مع اليهود .. وفى كتابه الوثائقى «المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل» ينشر محمد حسنين هيكل نداء نابليون إلى يهود العالم بعد أن استعصت عليه أسوار القدس .. وفيه يصف اليهود بأنهم .. «ورثة فلسطين الشرعيون» .. ويصف الاسرائيليين «بالشعب الفريد الذى لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومى وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط» .. وأبدى إيمانه بأنهم «سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف» .. وطالبهم بأن ينهضوا ليستردوا أرض الأجداد التى اغتصبها الأعداء غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم .. وطالبهم بالتعاون مع جيوشه «لاستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التى سلبت منكم لآلاف السنين وهى وجودكم السياسى كأمة بين الأمم» .

لكن .. اللعبة فشلت على يديه هنا فى مصر .. ونجحت على يدى غيره هناك فى فلسطين.

٨ بريماكوف فى سيدنا الحسين!

كان الصيف قد قطع شوطاً فى الرحيل .. وبدأ الخريف متردداً كعادته .. قدم فى الحر .. وقدم فى البرد .. وانعكست الفوانيس الزرقاء والصفراء والبنفسجية فى عيون القاهرة الناعمة التى تصبح فى الليل مرآيا سوداء صافية .

كنا مع يفجينى بريماكوف الذى أصبح الآن رئيس وزراء روسيا .. كنا نتقاسم معه ومع النيل القهوة والعصير والذكريات القديمة .. كان ذلك فى العام الماضى .. وكان بريماكوف وزيراً للخارجية .. وكان فى زيارة خاطفة للقاهرة فى نهاية جولة فى الشرق الأوسط بحثاً عن دور بلاده المفقود فى المنطقة .. أو فى بطن الحوت الأمريكى الذى ابتلع كل شئ .. النص والأدوار والديكور وخشبة المسرح والجمهور.. وبحثاً عن وسيلة - ولو يائسة - لإنقاذ عملية السلام من مخالب وأظافر ديك شرس .. منفوش بالغطرسة اسمه بنيامين نيتانياهو .

فى هذه الليلة قابل بريماكوف الأصدقاء القدامى الذين عرفهم قبل حوالى ٣٥ سنة فى القاهرة عندما كان مراسلاً لصحيفة «البرافدا» التى كانت معبرة عن الاتحاد السوفيتى قبل سقوطه وتهشمه وتحوله من إمبراطورية عظمى إلى قطع من الزجاج

المدبب .. دبر هذه المفاجأة العاطفية د. أسامة الباز المستشار السياسى للرئيس .. ووجد بريماكوف نفسه وسط أصحاب الستينات .. محمد عودة وأحمد حمروش ومحمود أمين العالم وإسماعيل صبرى عبد الله ورفعت السعيد وعبد الستار الطويلة وكامل زهيرى وجمال الغيطانى .. وغيرهم من يسار الحرس القديم .. ومنهم أيضاً عادل حسين رغم إنقلابه الحاد من الشيوعية إلى الأصولية .. ولم يكن من الصعب أن يتذكر بريماكوف أيام السهر والسمر والطعام الشرقى الثقيل والمناقشات الأيديولوجية الساخنة فى بيوت هؤلاء الأصدقاء .. وفى مقاهى القاهرة .. من مقهى «ريش» فى قلب العاصمة إلى مقهى «الفيشاوى» فى سيدنا الحسين .. فلم تكن فنادق القاهرة .. الفاخرة تعرف فى ذلك الوقت إلا السياح .. وقليلاً من الأثرياء .

ولأننى كنت على هامش هذه الأيام ـ التى لم يختلط فيها الزيت بالماء وكان العالم فيها يمشى متوازناً بساقين إحدهما فى واشنطن والأخرى فى موسكو ـ فقد اكتفيت بمتابعة الأحضان الدافئة والذكريات القديمة والقفشات اللاذعة التى تبادلها بريماكوف وأصحاب زمان .

ثم .. إننى أخذت نصيبى من بريماكوف .. فقد تناولت معه الغداء فى المأدبة التى أقامها على شرفه وزير الخارجية عمرو موسى .. وأجريت فى جناحه بالفندق المطل على النيل الحوار الصحفى الوحيد معه .. وقد استمر حوالى نصف ساعة .. وكان عن غياب الدور الروسى فى الشرق الأوسط رغم مسئولية روسيا الرسمية والشرعية إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية حسب ما انتهى إليه مؤتمر مدريد.

وتذكر أننى وصفت الدور الروسى بدور «المحلل» فى قضايا الطلاق .. وكان بريماكوف الوحيد ـ فى الوفد الروسى ـ الذى فهم التشبيه .. فقد عاش فى مصر حوالى عشر سنوات .. ويجيد اللغة العربية الى الطريقة العامية .. ويستمتع بالنكتة .. ويعرف أن الطريق إلى قلب المصريين يبدأ بخفة الظل وينتهى بالمجاملة .. وهو

أيضاً يقدر المشاعر ويتأثر بها .. ويعرف المجاملة ويسعد بها .. لذلك لم تفته - ونحن على غداء عمرو موسى - أن يتحدث عن مجاملة الرئيس حسنى مبارك له عندما حرص أثناء اللقاء معه أن يتحدث إليه ببعض العبارات باللغة الروسية التى تعلمها فى موسكو .. فى بعثات التدريب عندما كان طياراً فى القوات الجوية .

وقد خرج بريماكوف من القاهرة بكتابين عن مصر كتبهما هو ومراسل البرافدا أيضاً «أويجوا بيلاليف» .. أحدهما عن «مصر فى عهد عبد الناصر» والآخر عن حرب يونيو بعنوان «إطلاق الحمامة» والحمامة هى الاسم الكودى السرى لعملية ١٩٦٧ وقد دعمت واشنطن فى ظل حكم الرئيس الأمريكى ليندون جونسون هذه العملية بعملية سرية أخرى للتخلص من جمال عبد الناصر كان اسمها الحركى «قتل الديك الرومى» .

وواضح من كتابات بريماكوف عن مصر أنه فهم سرها .. فقد تصارعت عليها منذ فجر التاريخ كل القوى العظمى .. وتزاحم على قلبها جنرالات وقادة مشهورون من يوليوس قيصر إلى عمرو بن العاص .. ومن نابليون بونابرت إلى موشى ديان .. لكن رغم ذلك ظلت مصر .. مصرية .. ولم يستطع أحد أن يغير شخصيتها أو يغير سمار بشرتها وسواد عينيها .. بل على العكس كانت مصر هى التى تذيب الغزاة والعشاق .. وتروضهم .. وتجعلهم على صورتها .. إن مصر - المجبولة بالشمس والهواء وطمى النيل - تعرف كيف تدافع عن نفسها فى الوقت المناسب .. وتقدر على امتصاص كل العناصر الوافدة وتحولها إلى شجرة مانجو أو سنبلة قمح أو زهرة قطن .. وقد غادر بريماكوف القاهرة إلى موسكو ليترك الصحافة التى عمل بها حوالى ١٥ سنة منذ تخرجه فى عام ١٩٥٥ .. ليتفرغ لأبحاثه بعد أن تولى منصب نائب مدير المعهد الدولى للاقتصاد والعلاقات الخارجية الذى أصبح مديره فيما بعد لمدة ١٥ سنة حتى عام ١٩٨٥ .. لقد جمع بين خبرة الصحفى الذى يلمس

الواقع ورؤية الباحث الذى يحلق فى المستقبل.. فتبلورت شخصيته البرجماتية .. إن الصحافة مستودع خبرة تجعل صاحبها قادراً على القفز بنجاح على أرض الواقع ربما أكثر من الذين جاءوا من الجامعة إلى السلطة مباشرة .

وتولى بريماكوف أيضاً عمادة معهد الاستشراق .. وهو المعهد الذى تخرج فيه وهو معهد استراتيجي ـ مثل معاهد افريقيا وآسيا وأمريكا ـ يساعد السلطة العليا فى الكرملين على اتخاذ أفضل القرارات فى السياسة الخارجية .. وقد تمنى بريماكوف أن يفهم ابنه السياسة الأمريكية فألحقه بمعهد أمريكا فى موسكو .. لكن الابن مات فى حادث سيارة قبل أن يحقق حلم أبيه .. ولحقت به زوجة بريماكوف .. ولم تبق سوى ابنته التى أنجبت حفيدين .. وحتى لا يعيش بمفرده تزوج مرة أخرى .. وتفرغ لعمله دون أن يفقد الشجن والحزن .. إن الموت علمه عدم التكالب على الحياة .. وهو ما قاله لى بريماكوف .. وعلمه الموت أيضاً أن كنوز الدنيا لا تعوض فقدان الأحباب .. وهو ما جعل بريماكوف أكثر الشخصيات شفافية فى وقت كانت فيه روسيا مثل بقرة أغمى عليها ينهشها اللصوص والسماسرة ورجال المخابرات وأعضاء الحكومة وقيادات الأحزاب .. وتحول المبدأ الشيوعى الشهير من «كل حسب حاجته» إلى «كل حسب ذمته».. وكانت ذمة البعض أوسع من العاصمة موسكو .

إن الفساد الذى كان مثل سرطان انفجر فى كل خلايا روسيا كان مثل صندوق الشرور الذى انفتح ولم يغلق .. وحتى تتكون طبقة رأسمالية جديدة ـ فى دولة كانت شيوعية لا تعترف بالملكية ـ كان لابد من أن يدفع الناس الثمن .. فكل مليونير يولد من العدم كان يعيش أمامه وبسببه مليون إنسان فى الفقر والعهر والقهر .. لقد عرف الروس الدموع .

ومن ثم كانت شفافية بريماكوف وزهده وتواضعه من عوامل اتفاق القوى السياسية المتصارعة والمتنافرة عليه .. إنك عندما تراه تجد ثيابه بسيطة .. ورابطة

عنقه معوجة .. وجسده يميل إلى البدانة مثل ملايين الفلاحين البسطاء فى أوكرانيا الذين ولد بينهم فى عاصمتهم «بتلبس» فى عام ١٩٢٩ .

والمعروف أن الفلاح الروسى لا يميل إلى الانقلابات والمنعطفات الحادة .. ويعترف بفضيلة الصبر .. ويؤمن بكلمة الشرف .. لذلك يصر بريماكوف على التغيير التدريجي .. التغيير بالتقسيط أو بالتنقيط .. وهو ما جعله رجل الإنقاذ والأطفاء المناسب فى الوقت المناسب .. وهو جعله كذلك يستعمل كلمة الوطنية الروسية بدلاً من الشيوعية السوفيتية .. وبدلاً من الرأسمالية الطفيلية أو الرأسمالية الأمريكية .

إن الأيديولوجية ليست حذاء تخلعه كل سنة أو كل شهر وتستبدله بحذاء جديد .. والوطن أبقى من أى فكرة وأى سلطة .. والثقافة لا تتناقض مع البساطة .. والبساطة لا تعنى السذاجة أو السطحية أو الأمية .. وبريماكوف مثقف ذكى وبسيط ولا يحلم بدور الأمير أو القيصر .. ويقف دائماً بين أسنان التنين .. وعنوانه السياسى الدائم الآن هو الخط الفاصل بين الحياة والموت .. بين النجاح ومزيد من النجاح .. بين الشيوعية وفوضى التحول إلى الرأسمالية .. وهو يفسر الأزمة الروسية الحادة بأنه حين تريد أن تؤسس عالماً جديداً على أنقاض عالم قديم فإن كل حجر يصرخ فى وجهك وكل الأشجار المقتلعة تقف فى طريقك وكل الخاسرين والمتزمتين والأصوليين يسيرون فى مظاهرة ضدك لأنك قطعت رزقهم وأحرقت وجودهم .

وقد عين بريماكوف ـ قبل سقوط الأمبراطورية السوفيتية ـ عضواً فى المكتب السياسى للحزب الشيوعى .. أعلى سلطة فى البلاد .. ومع خبرته السياسية أصبح مؤهلاً للصعود إلى القمة .. وقد بدأ صعوده فى الشئون الخارجية مستشاراً لجورباتشوف الذى أرسله إلى صدام حسين خلال أزمة الخليج لإقناعه بالانسحاب من الكويت .. وحاول بريماكوف إقناع صدام حسين بأن الدنيا تغيرت .. والحرب الباردة انتهت .. وأن العالم جاد فى إضعافه وتجويع شعبه .. لكن الرئيس العراقى

كان لا يزال يعيش فى عصر الديناصورات المنقرضة .. فكان ما كان .

فى ذلك الوقت كان يسيطر على الخارجية السوفيتية وزير لا يرى فى الدنيا سوى عيون واشنطن هو كوزرييف الذى وصف ـ لشدة انحيازه للسياسة الأمريكية ـ بأنه مساعد وزير الخارجية الأمريكية فى الكرملين .. وهو ما أدى إلى انهيار السياسة الخارجية السوفيتية وانهيار كوزرييف .. وزيادة الأعباء على بريماكوف الذى وجد نفسه مسئولاً عن المخابرات الخارجية بعد انفصالها عن جهاز المخابرات المعروف بـ K.G.B .. وفى عام ١٩٩٦ أصبح بريماكوف وزيراً للخارجية .

إن بريماكوف خليط من الصحفى والباحث والسياسى والشاعر والمعلم ورجل المخابرات .. ورجل المهام الخاصة والسرية .. ولعل ذلك ما جعله شخصية عملية من طراز فريد .. تضع قدميها على أرض الواقع .. وتجيد لعبة حلول الوسط .. وأرضاء جميع الأطراف .. أو على الأقل إقناعهم بذلك .

هكذا .. جاء إلى الشرق الأوسط .. المنطقة التى شهدت خبراته الأولى ـ فى محاولة لكسر الجمود .. وقد فشلت المحاولة بسبب تطرف نيتانياهو من جهة .. ومتاعب روسيا الداخلية التى شدت بريماكوف للقضايا الداخلية من جهة أخرى .. وفى حوارى معه أتذكر أننى قلت له :

ـ إن نيتانياهو يصر على أن يتصرف مثل أسماك القرش ويأكل كل تعهدات إسرائيل وكل المعاهدات التى وقعتها ويحول الشرق الأوسط إلى بركة من الدماء .

فقال :

ـ نحن نصر على أن تنفذ إسرائيل ما وقعت عليه .. خاصة مبدأ الأرض مقابل السلام .. فهناك معاهدات وقعت عليها جميع الأطراف وتوصلوا إلى هذا الحل الذى نقضه نيتانياهو بدعوى الأمن .. ولكننا لا نستطيع أن ننظر فى الأمن بدون السلام ..

وقد قلت لهم ذلك فى إسرائيل .. وقلت لهم أيضاً: إن السلام فقط وحده الذى يفرض أمناً حقيقياً .

ولا جدال أن هذا الموقف الواضح لبريماكوف كان السبب فى فتح نيران المدفعية اليهودية الثقيلة عليه .. فقد هاجمه الصحفى اليهودى المعروف روزنيتال فى صحيفة «نيويورك تايمز» متسائلاً عن سبب إخفاء بريماكوف ليهوديته .. والمعروف أن أم بريماكوف يهودية .. لكن بريماكوف يرى أن الدين لله .. والأيديولوجية للجميع .. وهذا هو سر عدم ترحيب إسرائيل بتولى بريماكوف مسئولية الحكومة فى روسيا لذلك فإنه من المتوقع أن يلعب اليهود معه تحت الحزام .

وهاجم روزينتال علاقته الحميمة بأصدقائه المصريين وسخر من سهراته معهم على شاطئ النيل .. وقال له: إنهم لن ينفعوك .. موحياً بأن الذين سينفعونه هم اليهود فقط .. وهو ما يفرض علينا مد المزيد من الجسور بيننا وبين بريماكوف وتقوية الصلات القديمة وعدم الاكتفاء بالذكريات .. ولا بالمبدأ الشهير .. إهمال الأصدقاء .. فهم أصدقاء .. والتركيز على الخصوم لعلنا نكسبهم .. فهذا المبدأ الشرقى فى السياسة ينتهى غالباً إلى فقدان الأصدقاء والخصوم معاً .

إن لنا صديقاً قديماً وفاهماً وقوياً فى موسكو .. العاصمة الثانية للعالم مهما بدت الآن ضعيفة وهشة ومفككة .. فى الوقت الذى فيه العاصمة الأولى واشنطن فى قبضة اليهود .. وحولت واحداً من أقوى وأفضل رؤسائها هو بيل كلينتون إلى بطة ثقيلة عرجاء عاجزة عن الحركة واتخاذ القرارات .. إن الفضيحة لن تسقط كلينتون.. لأنهم لا يريدون له أن يسقط .. لكنها ستصيبه بالشلل وهو يريدون ذلك .. وقد انضم محتكرو صناعة الدخان - الذين أصابهم كلينتون بخسارة تزيد على ١٠ مليارات بالإضافة إلى إجبارهم على دفع ٤٠٠ مليار دولار تعويضات للمدخنين - إلى اليهود واغتالوا كلينتون معنوياً . كما اغتال محتكرو الصلب جون كنيدى جسدياً..

والمعروف أن المحقق المستقل كينث ستار كان مستشاراً قانونياً لاحتكارات التبغ والسجائر الأمريكية التى أصبح الشرق الأوسط وشرق أوروبا أهم أسواقها الآن .

أكثر من ذلك فإن بريماكوف سيكون مشغولاً بملفات لها أولوية ليس من بينها حالياً الشرق الأوسط. مثل مشاكل روسيا الاقتصادية .. ومزيد من الحياد والتفاهم لا الانحياز والتبعية للإدارة الأمريكية .. وملف العلاقات مع بكين التى زارها كاسراً الثأر القديم بسبب الخلافات العقائدية، بادئاً شهر العسل بينها وبين موسكو فى خطوة جريئة تحسب له .. كذلك فإنه سعى إلى جنوب شرق آسيا ودول طريق الحرير التى يدور حولها الصراع الدولى الآن .. وهذه الملفات لا يمكن أن يضاف إليها ملف الشرق الأوسط الآن إلا بمزيد من مد الجسور بيننا وبين بريماكوف ليس فى السياسة فقط وإنما فى مجال «البيزنس» أيضاً .. وقبل ذلك علينا أن نغسل عقولنا من الخرافات التى نملؤها عن روسيا والتى صاغتها وزرعتها وصنعتها أجهزة الدعاية الغربية فى زمن الحرب الباردة .. والتى ضاعفت من تأثيرها أميتنا السياسية وسذاجتنا الفكرية .. وهو ما جعلنا نقدم تنازلات قومية وعاطفية للطرف الآخر الذى تصورنا أنه يمكن أن يطلق إسرائيل .. ويتزوجنا .

إن بريماكوف يعيش الآن ما يسمى باللحظات المصيرية التى يشتعل فيها التاريخ بكل تفاصيله وأجزائه .. وتنفجر المتاعب والمسافات وتتكسر الأزمنة .. وتدوس الأيام على بعضها .. وأمام هذه الظروف الاستثنائية يصبح المنطق عاطلاً عن العمل وتصبح الحسابات التقليدية كلها خطأ وتختل المعادلات ويصبح النجاح الاحتمال الصعب ويصبح الأصدقاء القدامى سنداً وساعداً ونحن بالنسبة لبريماكوف هؤلاء الأصدقاء القدامى.

٩ الرجل الذى استرد ظله

تستغرق المسافة بين قصر «أليتى» وقصر «المواردية» خمس دقائق.. لكن السيارة التى حملتنا بين القصرين قطعتها فى حوالى الساعة بسبب اختناق المرور فى مدينة الجزائر رغم «سرينة» السيارة الرسمية التى تشير إلى أنها تحمل ضيفاً على الدولة.

وقصر «أليتى» كان مقر قيادة قوات الاحتلال الفرنسية فى الجزائر.. أما قصر «المواردية» فكان مقر أدميرال البحر الفرنسى «فرانسوا دارلان» الذى قتل فيه بالرصاص فى ديسمبر ١٩٢٤ .. وقد أصبح «أليتى» بعد الاستقلال فندقاً له مذاق التاريخ وذوق العمارة الفرنسية .. أما قصر «المواردية» الذى تغير اسمه إلى قصر الشعب. فقد أصبح مقر رئيس الدولة منذ عهد الرئيس هوارى بومدين بعد أكثر من ٤٠ سنة كان القصر فيها مغلقاً يعانى الوحدة والفراغ والإهمال .

وقد أتيح لى أن أدخل قصر «المواردية» وأفتح حواراً على مستوى القمة فيه مرتين .. فى عصرى هوارى بومدين .. وخليفته الشاذلى بن جديد .. ثم كان أن انفجرت بحور الدم فى الجزائر .. وحالت بينى وبين قطعة ساخنة ـ من جسد الأمة العربية ـ كانت تمزق نفسها بنفسها وتقطع لحمها بيدها فى مسلسل من القسوة لا

يملك أكثر الناس خيالاً تفسيراً له .. وهو مسلسل آن الأوان - على ما يبدو - أن ينتهى بوصول الرئيس الجديد عبد العزيز بوتفليقة إلى قصر «المواردية» فى ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

وبوتفليقة - لمن يعرفه عن قرب - صريح .. مباشر .. عنيد .. صبور يستمع طويلاً لخصومه حتى يحدد الثغرة التى سينفذ منها .. يعرف كيف يصل إلى ما يريد ولو طال الزمن .. وقد كان طويل النفس عندما فضل الجيش عليه الشاذلى بن جديد لخلافة بومدين .. وكان متوقعاً أن يخلف هو بومدين الذى مات مسموماً بنوع من السم سربته الموساد إلى جسده فراحت شعيراته الدموية تتفجر دون سبب واضح وهو ما كشفه السوفيت فيما بعد .. وكان بومدين قد نجح فى دعم وتوحيد الفصائل الفلسطينية فى وقت كان الحديث فيه عن الصلح مع إسرائيل قد أصبح مباحاً فأصبحت حياته مطلوبة .. وترك بوتفليقة الجزائر إلى جنيف تاركاً العالم كله يتصور أن هذا الشاب الذى كان أصغر وزير خارجية وكان أقوى رجال بومدين وأقوى المرشحين لخلافته أحترق وانتهى سياسياً إلى غير رجعة .. لكنه .. عاد بعد سنوات طويلة ليصبح الرئيس السابع للجزائر .. وكأنه استرد حقه ولو بعد ٤ رؤساء .. وهو ما يكشف العناد والإصرار والتحدى فى شخصيته التى توصف بشخصية سيف من الحرير .

وبوتفليقة واحد من سبعة أشقاء لم يعرف سلطة الأب .. وإن عرف قوة الأم التى تولت تربيته هو وأشقاءه .. وفرضت عليهم أن يعيدوا توزيع جملة دخولهم حسب حاجة كل منهم .. ولأنه كان بحكم منصبه الأكثر شهرة والأعلى راتباً فإنه كان يقدم الكثير من ماله وراتبه لباقى الأشقاء (منهم شقيقة كانت تعمل ممرضة) .. وكان وهو وزير للخارجية متواضع الثياب .. لا يقدر أن يدفع الإكراميات فى سفراته الخارجية .. ولم يحقق بعض الانتعاش المالى إلا بعد أن ترك الجزائر وعمل

مع بعض دول الخليج وعلى رأسها دولة الإمارات العربية .

وهو من مواليد بلدة «وجدة» على حدود المغرب بالقرب من تلمسان.. آخر ولاية في الغرب الجزائرى .. ولد في عام ١٩٣٥ ولم يكمل تعليمه بسبب انخراطه في صفوف الثورة التي انفجرت في ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤ وكان عمره ١٩ سنة .. وكان معروفاً باسم «عبد القادر المالى» نسبة إلى دولة مالى التي كانت مدخل الثورة الجزائرية ـ عبر الصحراء الكبرى ـ إلى إفريقيا وكاد يقتل رجماً في تلك الأيام فقد كان واحداً من الشباب الذين يقومون بحلقات الوصل بين القيادات الثورية في مختلف أنحاء الجزائر وفي إحدى المهام كانت معه فتاة في مثل عمره .. وتعرضا للهجوم من دورية فرنسية فخافا ودخلا مغارة ليختبأ فيها .. وهو ما أثار الشبهات في ثورة كانت صارمة في التعامل مع أفرادها وتطبق عليهم حدود الشريعة فتقرر رجمهما وكادا يقتلا علناً بالحجارة لولا أن جاءت شهادة من رفيق كان معهما أنقذت حياتهما .. ثم وجد الجميع أنفسهم في اشتباك مع دورية فرنسية .. فتحول مشهد الرجم إلى معركة شرسة مع العدو .. وحتى الآن يصر بوتفليقة على مقاطعة الزواج رغم أن عمره تجاوز الستين .. (حوالى ٦٥) .

ولبراعته في الاتصالات كان هو الذى دخل في حوار مباشر مع أحمد بن بيلا وهو في السجن بعد أن اختطفه الفرنسيون هو ورفاقه (الذين كانوا يعرفون جميعاً بالأحرار الخمسة) في الطائرة (عام ١٩٥٦) وحتى الاستقلال في عام ١٩٦٢ وأصبح بن بيلا أول رئيس للجزائر .. لكن ذلك لم يمنع صراعاً حاداً انفجر بين الجناح العسكرى (الذى شعر أنه دفع الثمن من دماء مليون ونصف المليون شهيد) والجناح السياسى (الذى كان يرى أن قيادة الثورة ليس بالضرورة تصلح لقيادة الدولة) وكانت رؤوس الحراب في الجناح العسكرى رئيس الوزراء ووزير الدفاع هوارى بومدين .. ووزير الخارجية عبد العزيز بوتفليقة .. وكان الرهان في ذلك الوقت على كسب ود ودعم جمال عبد الناصر الذى كان واضحاً انحيازه إلى بن بيلا .. بل

إن جمال عبد الناصر شعر بالخطر على بن بيلا فكلف عبد المجيد فريد بإرسال برقية تحذير إليه لكن البرقية تسلمها طاهر الزبيرى رئيس الأركان والقريب من الرئيس ولم تصل البرقية إلى بن بيلا وإنما وصلت إلى بومدين الذى سارع بتنفيذ عملية إقصاء بن بيلا عن السلطة .. وضاعف من السرعة أن الجزائر كانت على وشك استضافة مؤتمر قمة على المستويين الآسيوى والإفريقى .. وكانت مصر وراء إخراج هذا المؤتمر بصورة لم تكن تسمح بها امكانات دولة وليدة مثل الجزائر .. وكان هذا المؤتمر فرصة لأن يلعب بن بيلا دوراً بارزاً على المستوى العالمى سيسهم بالقطع فى مضاعفة قوته على المستوى الداخلى .

كان بن بيلا فى ليلة الانقلاب ينام فى فيللا «جوان» أو فيللا «يونيو» وكانت المقر الرسمى للحكم قبل قصر «الشعب» وبعد أن أطفأ النور بعد منتصف الليل كان خمسة من كبار ضباط الجيش يستعدون للانقضاض عليه على رأسهم طاهر الزبيرى الذى كان يحظى بثقة بن بيلا .. وعلى حد رواية محمد حسنين هيكل (فى الأهرام ـ ٢٥ يونيو ١٩٦٥) فإن الضباط الخمسة فتحوا الباب على بن بيلا وأضاءوا النور ففتح عينيه وجلس فى سريره ينظر فى دهشة إليهم وهنا قال له طاهر الزبيرى: «سى أحمد إن المناضلين الحقيقيين تحملوا مسئوليتهم فى هذا البلد» .. ويبدو أن بن بيلا لم يفهم فأضاف الزبيرى: «سى أحمد أنت لم تعد رئيساً للجمهورية يلزمك الآن أن تستريح» .

كان الصراع بين بن بيلا وبوتفليقة هو شعرة معاوية التى انقطعت بين بن بيلا والجيش وفصائل المجاهدين فقد راح بن بيلا يضغط على بومدين لطرد بوتفليقة من وزارة الخارجية بدعوى أنه ينفذ سياسة خارجية لا يرضى عنها .. ولكن بومدين ـ الذى لم يكن طامحاً إلى منصب الرجل الأول ـ شعر أن كل رفاقه الثوار سيذهبون فى «شربة ماء» يمضمض بها بن بيلا فمه .. ثم يبصقها فكان أن قرر

بومدين أن يفطر به قبل أن يتعشى بهم فكان ما كان .

ووصف بوتفليقة بالرجل القوى وراء الانقلاب ورشحته بعض الأخبار لتولى الرئاسة استناداً إلى رفض بومدين دور الرجل الأول .. ولكن كانت السلطة الجديدة جماعية ومكونة من ٢٠ شخصاً .. وفى ذلك الوقت كان على بوتفليقة مد جسور الثقة بين السلطة الجديدة فى الجزائر وجمال عبد الناصر ولم تنجح مهمة عبد الحكيم عامر - الذى طار إلى الجزائر بعد الإنقلاب لمعرفة ما جرى - فى مد هذه الجسور فكان على بوتفليقة أن يطير إلى القاهرة ويكسب تأييد جمال عبد الناصر وجهاً لوجه.. خاصة في وقت كانت فيه الجزائر على وشك تقديم نفسها بصورة مختلفة في المؤتمر الآسيوى الإفريقى .. ووصل بوتفليقة إلى القاهرة قبيل منتصف الليل .. وتوجه فوراً إلى بيت جمال عبد الناصر الذى استمرت المحادثات معه حتى الثالثة صباحاً .. ثم ذهب بوتفليقة لمقابلة شو اين لاى رئيس وزراء الصين الشعبية وأحد الوجوه اللامعة فى حركة عدم الانحياز ولا جدال أن شو اين لاى منح ثقته لهذا الوزير الشاب الذى لم يكن عمره تجاوز الثلاثين .. وفيما بعد رد بوتفليقة هذه الثقة عندما أصبحت الجزائر رئيسة دورة الأمم المتحدة فى عام ١٩٧٤ ففى هذه الدورة قبلت الصين الشعبية عضواً فى الأمم المتحدة واعترفت المنظمة الدولية لأول مرة بمنظمة التحرير الفلسطينية .. وهو ما رفع أسهم بوتفليقة فى العالم على المستويين الرسمى والشعبى .. وارتفعت الأسهم أكثر بعد أن تولى بوتفليقة مهمة التفاوض مع كارلوس وجماعته التى اختطفت وزراء بترول دول الأوبك فى فيينا وحملت الوزراء والمختطفين طائرة هبطت فى الجزائر ونجح بوتفليقة فى تحرير الرهائن وإنقاذ حياة ١٢ وزيراً للبترول كانت القنابل فى أفواههم على حد تعبير وزير البترول السعودى الأسبق الدكتور زكى يمانى الذى كان أول المطلوبين للموت.

بعد وفاة بومدين لم يحظ بوتفليقة بمكانه الطبيعى فى قصر الشعب.. وشعر

الجيش الذى كان يسيطر عليه محمد يحياوى أن بوتفليقة أقوى من أن تترك له السلطة وإلا تجاوز الجيش الذى يلعب الدور الأكبر والأخطر فى السياسة وكان أن جاءوا بالشاذلى بن جديد وكان قائداً مجهولاً فى وهران يقضى شهر عسل جديداً .. ويهتم بلعبة التنس أكثر من اهتمامه بمناورات السياسة ولا جدال أن بن جديد خفف من قبضة السلطة المركزية فى البلاد .. لكنه وصل بها إلى حالة من التسيب والفساد وتراجع عن خطة التعريب وفتح الباب على مصراعيه لتيار التطرف الدينى فدخلت الجزائر فى مستنقع العنف وغرقت فى المذابح والمجازر وبحار الدم .. وبدا أن الحرب الأهلية انفتحت على أبواب جهنم فى الجزائر بعد أن أغلقت هذه الأبواب فى لبنان وبنفس شراسة القتال فى حرب التحرير راح الجزائريون يكررون سيناريو العنف فى حرب ليس فيها تحرير وإنما تخريب .

والشخصية الجزائرية مشهورة بالعنف .. ولكن .. من الظلم ألا نعرف أن سبب هذا العنف هو ما عاناه الناس فى الجزائر من تعذيب وتدمير على يد الفرنسيين فى تجربة شديدة الألم لم يقدر لشعب آخر أن يتعرض لها وحتى وقت قريب عندما كنا نزور الجزائر كنا نقرأ أخبار المقابر الجماعية التى كانت تكتشف فى عمليات الحفر والبناء مئات الناس كانوا يدفنونهم أحياء وهو ما جعل الناس هناك لا يخشون الموت ويتعاملون معه بنفس السهولة التى يشترون بها الخبز ويشربون القهوة .. كما أن الدين الإسلامى كان هوية الجزائريين فى الثورة التى تعكس الإيمان بالعروبة .. حتى أن الجزائريين لا يتصورون وجود عرب غير مسلمين .. كذلك لم يكن فى الجزائر طبقة وسطى وقت الاستقلال قادرة على ايجاد التراكم السياسى المدنى المناسب وهو ما جعل من السهل رفع شعار الجهاد دون مقاومة .. وكل ما حدث هو أن الجزائريين غيروا هدف الجهاد فأصبح سلطة الحكم بعد أن كان سلطة المستعمر.

على أنه من جانب آخر كان على الجزائريين أن يتعلموا كعادتهم بالدم وأن

يكتسبوا خبراتهم السياسية بالتصفيات الجسدية وهو ما جعل دور بوتفليقة فى تولى السلطة يتأخر سنوات طويلة قضاها فى الغربة بعيداً عن الوطن يعانى من حملة التشهير التى اتهمته باختلاس ٥٠ ألف دينار جزائرى (وهو مبلغ أقل من ٥ آلاف دولار) واستخدمت هذه الورقة فى الانتخابات التى خاضها .. ورد عليها كثيراً كما أنه كان فى الغربة يعانى من متاعب فى الكلى خففت منها الرعاية الطبية المتوافرة فى سويسرا وأيضاً استخدمت هذه الورقة للعب المضاد له فى الانتخابات ولكن كل هذه الأوراق ما كانت لتؤثر فى سياسى محترف مثل بوتفليقة.. نجح فى أن يحظى بتأييد من التيارات السياسية الرئيسية فى الجزائر فى وقت بدا فيه الجزائريون أنهم زهدوا العنف وتعلموا الدرس وفى حاجة لأن ينعموا بفضيلة الاستقرار التى حرموا منها طويلاً .. وكان بوتفليقة قد رفض أن يصل إلى السلطة بالشروط التى فرضت على سلفه الأمين زروال وأصر على أن يصل إلى السلطة عبر صندوق الانتخابات والغريب أنه نجح فى الوصول إلى الحكم بالانتخاب فى عام ١٩٩٩ ولم يصل إليه بالانقلاب فى عام ١٩٦٥ كما أنها ظاهرة يندر حدوثها فى السياسة ـ خاصة فى العالم الثالث ـ أن يعود إلى السلطة من فرض عليه أن يتركها وأن يعود للضوء من أجبروه على الظل .

ولعل مواهب بوتفليقة السياسية تتجلى فى قدرته على أن يجمع بين الجيش (حزب جبهة التحرير) والتيار المدنى (حزب التجمع الوطنى الديمقراطى) والتيار الإسلامى (حركة النهضة الإسلامية) فى تحالف واحد هو الذى وقف وراءه فى الانتخابات ومنحه أعلى فرص الفوز وحفز خصومه على الهروب المبكر من المواجهة الأخيرة قبل الإدلاء بالأصوات بيوم بدعوى أن التزوير سيقع .. سيقع ، كما أنه هو الوحيد بين المرشحين السبعة للرئاسة الذى يسبقه تاريخ سياسى معروف وتجربة محددة فى الحكم ومساحة كبيرة من العلاقات العربية والدولية .. ولكن.. فوزه فى الانتخابات سيصطدم بكثير من العقبات منها الديون الخارجية والشروط القاسية

لصندوق النقد الدولى فى مجتمع لا يطيق نفسه .. والتربص الأمريكى والفرنسى لرمز من رموز مرحلة بومدين وهى مرحلة كان يعترض عليها الغرب ويقاومها .. على أن كل ذلك يهون أمام وحدة الجزائر واستقرارها وتجفيف بحور الدم فيها وهى مهمة أتصور أن بوتفليقة هو الأكثر قدرة وحكمة على تأديتها .. لقد استرد بوتفليقة ظله عبر سنوات الغربة، فهل تسترد الجزائر ظلها هى الأخرى؟

١٠ تذهب الحكومات.. وتبقى الموهبة

السباحة ضد جاذبية الأرض عملية منهكة .. والخروج من منطقة عادات الناس المستقرة مهمة مستحيلة .. لكن .. من قراءة تاريخ الفكر والأبداع العربى يتبين أن التغيير كان دائماً مقترناً بالشهادة .

منذ أكثر من عام وأنا مطارد بلعنة «أم كلثوم» .

والسبب أننى تجرأت وتحدثت فى برنامج تليفزيونى عن الازدواجية التى نعانى منها ..

وكيف يقول البعض منا عكس ما يفعل .. وضربت مثلاً بمشهد فى برنامج تليفزيونى آخر قال فيه سائق السيارة الأخرة فى استنكار ودهشة وتحد:

«طبعاً السيدة أم كلثوم» .. وكانت هذه الإجابة القاطعة رداً عن سؤال عن المطرب الذى يفضله وكان يمكن أن يمر المشهد بسلام لولا أن صوت المطرب ـ الذى نسب له انهيار الطرب ـ أحمد عدوية كان ينفجر من جهاز «كاسيت السيارة الأجرة .. فى تناقض واضح بين ما نقول وما نفعل .. فنحن نفعل ما نريد .. ونقول ما يريد الناس سماعه .

وجاءت الطامة الكبرى عندما قلت تعليقاً على هذا التناقض لمقدمة البرنامج: «أقدر أقول لك أننى لا أحب الاستماع لأم كلثوم».. لا أحتمل ايقاعها وتكرارها .. ولا أملك الوقت للبقاء محنطاً فى مكانى وهى تغنى.. وهكذا .. قامت القيامة ضدى.. وبدأت مطاردتى فى كل مكان أذهب إليه .. ولولا الحياء لوجدت من استخدم فى الهجوم ما هو أكثر من الكلمات .. اللكمات مثلاً.

لم أجد من يستوعب ما قلت .. ولم أجد من يعطينى حقى فى تفضيل مطرب آخر يعبر عن جيلى أكثر .. مثل عبد الحليم حافظ.. أو فيروز.. أو ماجدة الرومى .. كل الذين وقفوا معى كانوا شباباً يفضلون مطربين من بينهم يصيبون الكبار بالصداع والصخب .. فكل جيل له أحلامه وثيابه وأفكاره ومطربوه .. ولا يمكن اتهامه بقلة الذوق الفنى وإلا وجدناه يتهمنا بالرجعية، والجمود والبقاء فى توابيت الفراعنة .. والفرق بين الإنسان والرصيف.. أن الرصيف يبقى دائماً مستقراً .. وراضياً .. ومستريحاً .. ومنبطحاً على الأرض فى انتظار الأقدام التى ستمشى عليه .

أما الإنسان فهو لا يجلس فى انتظار أحد .. ولا يهمه ما فات بقدر ما يهمه ما هو آت .. لا يهمه المحطات التى لاحت وإنما المحطات التى لم تلح بعد .. لا تهمه الأصوات التى سمعها وإنما الأصوات التى لم يسمعها بعد .. لا تهمه الكتب التى قرأها وإنما الكتب التى لم يقرأها .. وإلا أصبحت الدنيا أسطوانة مشروخة .. وأصبحت الحياة محلك سر .

ولا يعنى أن طرب «أم كلثوم» لا يناسبنى لا يناسب أيقاعى فى الحياة أننى لا أحترمها .. أو أرفض صوتها .. أنا أصلاً لا أجرؤ على تقييمها .. وإنما يعنينى أننى لا أميل إلى الطعام الدسم .. ولا إلى الملابس الرسمية .. ولا إلى السفر بالسفن .. بل أستطيع القول أننى من أشد الناس إعجاباً بقصة حياة «أم كلثوم» .. هذه المطربة الريفية البسيطة التى استطاعت بذكائها الفطرى وموهبتها أن ترفع قامتها لتطول

الحكام .. وتصبح صديقة مقربة منهم .. فى عصور سياسية مختلفة تماماً .. فقد غنت للملك فاروق .. وغنت لجمال عبد الناصر .. وغنت لمصر فى فرحها وحزنها .. وبقيت مثل الهرم وأبى الهول بعد ثورة يوليو .. فالثورة التى قلبت المجتمع وغيرته اعتبرتها من ثوابت الحياة فى مصر .. لا يجوز المساس بها .

عن حياة «أم كلثوم» صدرت فى بيروت ترجمة لرواية أدبية كتبت أصلاً باللغة الفرنسية ..

كتبها سليم تركية بعنوان «أم» لكن الترجمة صدرت بعنوان «كان صرحاً من خيال» .. وهو جزء من بيت فى قصيدة «الأطلال» الشهيرة التى غنتها للدكتور إبراهيم ناجى .. «يا فؤادى لا تسل أين الهوى .. كان صرحاً من خيال فهوى» ..

والرواية على لسان شاعر آخر كان أشد ارتباطاً بأم كلثوم هو أحمد رامى .. ولكن عندما تقرأها لا تستطيع أن تعرف أين يبدأ الخيال الأدبى وأين ينتهى الواقع الحى .. خاصة أن الرواية صدرت بعد أن أصبح أحمد رامى وأم كلثوم فى رحاب السماء .. فقد ماتت أم كلثوم فى عام ١٩٧٥ ومات أحمد رامى عام ١٩٨١ والطبعة الفرنسية من الرواية صدرت فى عام ١٩٩٤ بينما صدرت ترجمتها العربية فى عام ١٩٩٩ .. وهو ما يطرح قضية حساسة ومهمة أتصور أنها تستحق التدخل الجراحى العاجل للنقاد .. هى هل من حق من يكتب عملاً روائياً عن شخصية شهيرة أن يتصرف فى الوقائع والأحداث على هواه .. وأن يضع على لسان الشخصيات ما لم تقله .. وأن يفسر ما أخفته .. وأن يحملها ما لم تقبله وهى على قيد الحياة؟

وما يؤكد خطورة القضية أن مؤلف الرواية نفسه يعترف بأنه «استوحى» فصولها من قصة أحمد رامى .. لكنها فى النهاية ـ وعلى حد قوله أيضاً «مجرد خيال» .. وتزداد خطورة القضية لو عرفنا أن كثيراً من أبطال التاريخ المصرى أصبحوا أبطالاً لروايات أدبية يمتزج فيها الواقع بالخيال مثل رمسيس الثانى .. وإخناتون ..

ونفرتيتي .. وجمال عبد الناصر .. وتتصدر هذه الروايات قائمة أفضل المبيعات فى الغرب .. ولكنها فى الوقت نفسه تمتلئ بخرافات تاريخية لعل أشهرها أن اليهود هم الذين بنوا الأهرام .. أو تحسم ما كان مجالاً لخلافات علمية ودينية حادة .. مثل إن إخناتون كان هو النبى موسى .. أو تسئ لزعيم عربى مثل جمال عبد الناصر نسبوا إليه فى إحدى هذه الروايات أنه أحب فتاة يهودية وهو صبى صغير فى سن المراهقة .. ولو واجهت كتاب هذه الروايات بأخطائهم قالوا: أنهم أدباء وليسوا مؤرخين .. وأن الخيال يمنحهم الحق فى أن يقولوا ما يخطر وما لا يخطر على البال .. ولو تركت هذه الأخطاء التاريخية كما هى تحولت فى عقل ويقين القارئ غير المتخصص من خرافات وهواجس إلى حقائق .. ولعلى لا أتجاوز لو قلت أن هذه الطريقة هى أفضل وسيلة لتزوير التاريخ .. خاصة التاريخ البعيد عنا .. فبدعوى حرية الخيال والأدب والإبداع يمكن أن ترتكب جرائم لا حدود ولا حصر لها .

لكن هذه القضية لا تفقدنا استمتاعنا بالرواية (التى حملها معه من بيروت الصديق الطبيب المثقف محمد أبو الغار) ولا تحرمنا من معرفة الكثير الذى كان خفياً من حياة أم كلثوم .. ولعل أول ما يحتاج للتفسير الاسم الأصلى للرواية: «أم» .. بدون «كلثوم» .. فنحن نعرف أن أم كلثوم تعنى المرأة ذات الوجنتين الممتلئتين .. أو ذات الوجه المكتنز .. أما كلمة «أم» بمفردها فهى كلمة فى اللغات القديمة تعنى القيادة أو البداية .. ومنها اشتقت عدة كلمات مثل الأمة والإمام والأمومة والأمة (بفتح الألف والميم ومعناها الجارية) .. وبهذا التفسير يصبح لعنوان الرواية معنى .. فأم كلثوم عبرت عن «الأمة» فى مواقفها السياسية والتاريخية .. وكانت أحد أئمتها (ولو بالغناء الوطنى الحماسى) فى حروبها ضد إسرائيل .. منذ حرب فلسطين عام ١٩٤٨ إلى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ .. وكانت رمزاً من رموز «الأمومة» فى عواطفها المغناة برغم أنها لم تنجب أطفالاً .. وكانت فى بعض الأحيان مثل الأمة (بفتح الألف والميم) فى كلمات أغانيها التى تعترف فيها بقيود الرجل «أعطنى حريتى ..

أطلق يدى .. أننى أعطيت ما أستبقيت شيئاً .. آه من قيدك أدمى معصمى .. لم أبقيه .. وما أبقى على .. ما احترامى لعهود لم تصنها .. ولم الهجر والدنيا لدى» .

وتكشف الرواية عن قصة الحب الخفية بين أحمد رامى وأم كلثوم.. ويبدو أن هذا الحب كان السبب فى أنه نظم لها ١٣٧ أغنية من أصل ٢٨٣ أغنية غنتها أم كلثوم خلال مشوارها الفنى الطويل .. لكن الأهم فى هذه الرواية ما يشير إلى أن ذكاء أم كلثوم كان ينافس موهبتها .. فهى أول من أسس دولة الطرب المستقر .. وأول من وقفت ضد أن تظل الأغنية فى حالة حصار مع نفسها .. مثل حصان طروادة .. أو تتحول إلى ناد مغلق كنوادى البريديج .. لا يدخله عامة الناس من غير الأعضاء.. فقد أصبح صوتها متاحاً للجميع مثل زجاجة الحليب .. كاسرة بذلك الأرستقراطية فى الطرب .. واحتكاره .. سواء كان هذا الاحتكار للملوك والأمراء .. أو للصالونات .. أو للرؤساء والوزراء .. وقد علمتها تجربتها العريقة أن الذين يجلسون فى الصفوف الأمامية قد يكونون آخر من يتذوق صوتها .. وأن الذين يجلسون فى الصفوف الخلفية هم «الحب كله» .. والطرب كله .. الطرب يسقط بالتساوى على الناس جميعاً مثل المطر .

وأغلب الظن أن هذا الإحساس هو ما جعل الثوار يحبون أم كلثوم بنفس القدر الذى كان يحبها به الأمراء .. هو ما جعل جمال عبد الناصر يقربها إليه بنفس الحماس الذى قربها به إليه الملك فاروق .. لقد تغير النظام فى مصر .. ولكن بقيت أم كلثوم ثابتة .. رغم أنها بّعد نجاح الثورة كانت تخشى أن يمنعها الثوار من الغناء عقاباً لها على الغناء للملك ووصفها له بمليكى .. والذى حدث هو أن جمال عبد الناصر ـ حسب الرواية ـ هو الذى بادر بالاتصال بها تليفونياً قائلاً فى صوت جهورى محبب:

ـ أنا المقدم جمال عبد الناصر ـ كان معها ـ فى البيت وخادمتها سعدية تمد لها يدها بسماعة هاتفها الخاص ـ أحمد رامى الذى طلبت منه أن يقترب منها ليتنصت على المكالمة .. قالت ـ بقدرة مذهلة على تمالك نفسها ـ للقائد الحقيقى والخفى للثورة:

ـ لقد رفعت رؤوسنا عالياً .

ـ رأسك لم ينحن يوماً إلا لله .

ساد الصمت قليلاً .. ثم استطرد:

ـ أقول لك بصدق .. منذ أكثر من عام ونحن نعقد اجتماعات الضباط الأحرار سراً ليلة أول خميس من كل شهر (الموعد المعتاد لحفلاتها الغنائية) لاطمئناننا إلى أن الجميع (يقصد قيادات العهد الملكى) منصرفون لسماعك .. لم يخبرنى أحد من قبل بخبر توقف الإذاعة عن بث أغانيك (لم يقل أن الموظفين فى مصر أكثر ابتكاراً وأكثر تشدداً وأسرع مبادرة فى العقاب من زعماء وحكام البلاد) .. صديقك الصحفى مصطفى أمين يجلس الآن قبالتى .. هو الذى أخبرنى للتو (بمبادرة المنع بدعوى أن أم كلثوم من مخلفات العهد البائد) .. إتصلت بمدير الإذاعة فوراً وقلت له: النيل والأهرام هى أيضاً كانت موجودة فى ظل النظام البائد .. ولا أعتقد أن هناك أحداً ينوى منعها .

ـ إنكم تضعوننى فى مكانة لا أستحقها .

ـ ستكون مكانتك أعظم .. وأعظم .. لقد كنت صوت مصر .. لكن الثورة ستجعلك صوت كل العرب .. وسوف ترين .

لقد كسر جمال عبد الناصر بهذا الموقف جدار الخوف بين السلطة والفن .. بين الطرب والثورة .. ولكن نظامه لم يتعلم الدرس الذى استفاد منه شخصياً فى تحديد

مواعيد الإجتماعات السرية للضباط الأحرار .. وهو أن الدولة كلها تكون فى حالة غياب فى الخميس الأول من كل شهر .. وهى تغنى حتى مطلع الفجر .. ولا ننسى أن الإسرائيليين قالوا أكثر من مرة أنه كان من السهل هزيمة المصريين .. فقد كانوا فى حالة غيبوبة بسبب الحشيش وأم كلثوم .. ورغم أن التفسير مبالغ فيه لأن الهزيمة كانت لها أسباب جوهرية واضحة فإنه لا يخلو من حقيقة ولو عابرة وهى أن غالبية المصريين كانوا يغيبون عن الوعى بسحر صوتها وبفعل التخدير .. وأغلب الظن أن هذه المسئولية غير المباشرة عن الهزيمة هى التى ضاعفت من حماس أم كلثوم فى الغناء فى أماكن كثيرة فى العالم جمعاً للمال من أجل دعم «المجهود الحربى» .. والأهم من المجهود الحربى هو أن تقول أن لمصر صوتاً لا يزال رغم الهزيمة مرتفعاً .

وأعترف أن الإشارة ولو من بعيد لمسئولية أم كلثوم والحشيش عن الهزيمة كانت سبباً غير مباشر لعدم حماسى لأغانيها .. فأنا واحد من الجيل الذى وجد الهزيمة فى انتظاره وهو على عتبة الوعى والجامعة والحياة العملية .. واحد من الجيل الذى كان عليه أن يحمل كل أخطاء من سبقوه .. وهى أخطاء أتصور أنها لا تزال تفرض إرادتها علينا حتى الآن .

على أن الدرس الذى لا أنساه من حياة أم كلثوم .. وحياة غيرها من المبدعين والموهوبين والفنانين والروائيين والصحفيين .. هو أن الفن أبقى من السياسة .. والإبداع أطول عمراً من السلطة والثروة .. لقد خلدت اللوحات والروايات والمقالات والأسطوانات أكثر مما خلدت القرارات .. وتذكر الناس أصحابها أكثر مما تذكروا الوزراء وبعض الحكام.. إننا نتذكر محمد حسين هيكل بوصفه كاتب رواية «زينب» ولا نتذكر أنه كان رئيس مجلس الشيوخ .. ونتذكر محمد حسنين هيكل بوصفه صحفياً وكاتباً وربما نسينا أنه كان وزيراً للإعلام .. ونتذكر عباس العقاد بما كتب ولا نتذكره عضواً فى مجلس النواب .. ونتذكر سيد درويش ونحفظ ألحانه ونغنى

أغانيه ولا نتذكر رؤساء الحكومة الذين تعاقبوا عليه فى حياته .. ولولا أن محمد محمود باشا قد خلد نفسه بالمتحف الذى يحمل اسمه لما عرفناه .. إن القاعدة الذهبية الخالدة هى: تذهب السياسة وتبقى الموهبة .. تذهب الحكومات ويبقى المبدعون.. لكن أغلب المبدعين لا يصدقون!

١١ البحث عن أعداء شرفاء !

لأنها القائلة: «إن الحب الحقيقى هو الذى نعثر عليه فى أثناء بحثنا عن شئ آخر» كان لابد أن نلتفت إليها .. ولأنها القائلة: «إن الحب يأتى متسللاً إلينا من باب نصف مفتوح وقلب نصف مغلق» كان لابد أن نقترب منها .. ولأنها القائلة: «إن الحب مثل الحزن يولد كبيراً ويموت صغيراً» كان لابد أن نصدقها ونقرأها وننحنى لموهبتها .

عندما رأيتها أول مرة كانت بيروت ترقّد مسترخية على شريط من المصابيح الشاحبة أشبه بعقد من الياسمين الأصفر يضئ ليلها الذى طال انتظاره للفجر .. وفى أقل من نصف دقيقة صرنا أصدقاء قدامى .. ولم يكن ذلك غريباً .. فبين أبناء قبيلة الكتابة العربية علاقة نسب للحروف الصريحة الواضحة والكلمات الجميلة الجريئة الطيبة التى تخرج من شرايين القلب وشرايين اللغة .. نحن أصدقاء بالرضاعة.

فى تلك اللحظات العابرة شعرت بأن «أحلام مستغانمى» تحمل فى قلبها «تركة عاطفية ثقيلة» .. وأنها نقعت جراحها وأحزانها فى راحة كف وطنها الذى يترف

بلا حساب وبلا ثمن .. فجرت الموهبة فى عروقها ثم تدفقت على الورق .. فكانت روايتها الأولى «ذاكرة الجسد» التى أهدتها لى بعبارة «لماذا تطرق الباب والباب مفتوح» .. والتى نالت عنها شهرة كبيرة .. ونالت عنها جائزة «نجيب محفوظ» .. ونالت عنها لعنات واتهامات لا تزال تدميها .. ثم كانت روايتها التالية «فوضى الحواس» التى أهدتها لى بعبارة: «قلما تأتى الأفراح التى ننتظرها» .. وهى فى رأيى أكثر عمقاً وإبداعاً من روايتها الأولى .. ولكنها لم تحظ بنفس ما حظيت به «ذاكرة الجسد» نفسها من فرح وإعجاب .. وهو أمر متوقع .. فلا يمكن أن تمنح الكاتب شهادة تقدير مع كل عمل يكتبه حتى ولو كان يستحق وإلا أسقطوا عنا الجنسية العربية التى تقوم على الكسر والتحطيم وإطلاق الرصاص عشوائياً على النجوم اللامعة .

لقد كان استقبال «أحلام مستغانمى» الحافل فى البداية مثل استقبال الأشياء التى تثير الاستغراب والدهشة أو مثل استقبال غرائب الطبيعة .. فها هى أنثى تكتب .. وتسقط ثياب شهر زاد التنكرية .. وتعبر عن مشاعرها بصراحة دون حاجة لأن تختبئ فى شرايين كاتب رجل تروى له تجربتها فيتطوع بالمشاعر نيابة عنها وبالكتابة نيابة عنها .. لكن .. عندما تأكد للجميع أنها كاتبة ليست دمية .. وأنها قادرة على تعزيز «ذاكرة الجسد بفوضى الحواس» خرجت كل المخالب والأنياب تنهش لحمها وموهبتها .. وتفتش فى خلاياها ورحمها عن الأب الحقيقى لإبداعها .. وكان السؤال متوقعاً: «من أين أتت هذه المرأة الكاتبة التى استحوذت على كل هذا الضوء؟» .. وهكذا .. تحولت «أحلام مستغانمى» من مبدعة إلى مجرمة .. وانتقل الكلام عنها من صفحات الأدب إلى صفحات الحوادث .. وبينما هى لا تعرف هل ترد برواية جديدة أم تلجأ إلى القضاء كان هناك أكثر من دراكيولا لا يمسح الدم عن أسنانه المدببة ومخالبه التى تحولت إلى أقلام وسكاكين.

لقد بدأت «النميمة» فى الجزائر .. وطنها .. عندما نشرت صحيفة «الخبر

الأسبوعي» أن الشاعر العراقي «سعدي يوسف» جلس بين أصدقاء له في تونس وحكى لهم قصته مع «أحلام مستغانمي» و «ذاكرة الجسد».. وقال: «عشت مع أحلام كل مراحل كتابتها وكانت تمدني بكل ما تكتبه وكنت أقرأ وأعيد الكتابة وعندما انتهت أعدت قراءة المخطوط ثم أعدت كتابته ليصير على ما هو عليه الآن».

وتستطرد الصحيفة على لسان الشاعر المهاجر من وطنه إلى منفاه في لندن عن الكاتبة المهاجرة من وطنها والمقيمة مع زوجها «جورج الراسي» في بيروت: «ولأن ذاكرة الإنسان هي الأبقى ولأنها أعتى من ذاكرة الجسد والروح قررت بعد ألم ما حدث معي ومحاولة محو كل أثر لي أن أكتب قصيدة ستظل تحكي ما حدث وما لم يحدث لكل الذين عرفوا ولم يعرفوا» .. وفي القصيدة يقول «سعدي يوسف»: «إن أنت كتبت روايتك الأولى.. متناسية سيرتك الأولى .. خوفاً .. أو تعباً .. فلماذا هذا العبث الفارغ كله ؟ دوماً تأخذك الكلمات.. إلى أين؟.. كأنك من كلمات .. وكأن حياتك ليست بحياة .. قد تكتب أوراقاً عن «أسرار» روايتك الأولى .. قد يذكر (س) أنك فرجينيا وولف .. حسناً .. لكنك أدرى منه .. ومن تلك الأوراق .. أدرى بتراب روايتك الأولى».

وبهذه القصيدة أصبح «سعدي يوسف» هو الأب «الرابع» للرواية.. فقد سبق أن نسبت للشاعر الكبير «نزار قباني» - الذي لم يكتب لا هو ولا سعدي يوسف رواية من قبل - لمجرد أنه كتب على ظهر غلاف الطبعة الثالثة من الرواية: «إن هذه الرواية دوختني وأنا نادراً ما أدوخ أمام رواية من الروايات وسبب الدوخة أن النص الذي قرأته يشبهني إلى درجة التطابق فهو مجنون واقتحامي ومتوحش وإنساني وشهواني وخارج على القانون» .. لمجرد أن نزار قباني كتب: «إن هذا النص يشبهني» فقد أصبح أباه غير الشرعي.

ولما مات نزار قبانى وماتت معه النميمة المغربية بالانتشار من «طنجة» إلى «الشارقة» ظهر متهم جديد هو الكاتب الجزائرى «واسينى الأعرج» .. وكانت حيثيات الاتهام أنه من مسقط رأس «أحلام مستغانمى» نفسه .. بلدياتها .. وكأن هذا يكفى .. ثم جاء الدور على كاتب جزائرى آخر هو «مالك حداد» الذى لم ينف إصراره على الكتابة بالفرنسية التهمة على «أحلام مستغانمى» التى تجيد التعبير بالعربية وتصر عليها .. واعتبر البعض أن تشابه رواية «ذاكرة الجسد» مع روايته «ليس على رصيف الأزهار من يجيب» كافى لأن يلصق التهمة بأحلام مستغانمى .. ثم جاء الدور على «سعدى يوسف» .. وفى هذه المرة كان الانفجار مدوياً .. صاخباً .. صارخاً .. وكان لابد من معرفة حقيقة هذا الحمل الأدبى الخارج عن الرحم.

لم يتردد «سعدى يوسف» فى أن يخرج من شرنقة عزلته فى منجم من مناجم الضباب فى غرب لندن ويكذب «النميمة» .. وقال: «إن ما تردد فى الصحف أخيراً عن أننى ادعيت أن أكون الكاتب من خلف الكواليس لرواية «ذاكرة الجسد» ليس له أى أساس من الصحة» .. وكل ما حدث هو «أننى كنت فى باريس والتقيت بأحلام وزوجها وعرضت على أحلام مخطوطة روايتها الجديدة كى أطلع عليها .. وبعد شهر أعدت لها الرواية وعليها تعليقات واقتراحات عابرة ومحددة لكنها رفضتها كلها ولم تأخذ بها» .

لكن .. هذا «التكذيب» الواضح .. الفاضح لم يعجب هواة قتل النجوم الذين يتجولون بأقلامهم وأسلحتهم غير المرخصة ويطلقون الرصاص الطائش يميناً وشمالاً على كل موهبة متحركة .. إرضاء لشهوة الدم .. وطمعاً فى شهرة سريعة .. سهلة .. لا تحتاج سوى الضغط على الزناد .. والضغط على عنق الصفحات ليزهقوا روحها بين أيديهم .. إن ما قاله «سعدى يوسف» لم يرضهم وراحوا مثل مدع عام فى دولة بوليسية ـ يصدر الحكم قبل أن يحاكم المتهم ـ يستخرجون من تكذيب

«سعدى يوسف» أدلة الجريمة وبصماتها .. وأداة الإدانة ومكانها .. وراحوا يشنون حرب استنزاف من نوع لا يليق ضد ملامح «أحلام مستغانمى» الأنثوية .. الجذابة .. وكأن الموهبة لا تأتى إلا للمرأة العارية من الجاذبية .. ولا تسكن إلا أنثى تنافس أنثى الفيل فى الترهل .. وتنافس أنثى القنفد فى النفور .. وتنافس أنثى الغوريلا فى ملامح الوجه .. فكان أن غيروا عنوان روايتها من «ذاكرة الجسد» إلى «الكتابة بالجسد» .. وواصلوا عملية الاغتيال واطمأنوا إلى أنه لا توجد نجمة واحدة تتلألأ فى سماء الإبداع العربى .

أن تكون كاتباً موهوباً ومقروءاً فى العالم العربى معناه أنك مستباح من الفاشلين والمعقدين والمغرورين والزمارين والطبالين وأنصار العلاقات الخفية .. التحتية .. والخلفية .. معناه أنك ستكون فى مرمى نيران كل من يبيع نفسه وشرفه وقلمه مقابل حذاء كاوتش أو سندوتش فول أو تليفون محمول أو لحظة نرجسية يعبر فيها عن عقده النفسية .. معناه أنك لا تسند ظهرك إلى حائط وإنما تسنده إلى قبر .. على حد قول «أحلام مستغانمى» نفسها .

فى ندوة «المرأة والكتابة» التى عقدت فى الرباط أخيراً فتحت «أحلام مستغانمى» خزانة الأسى فى قلبها .. وصاغت بالألم دفاعها .. وقدمت مرثية لكل الموهوبين المقتولين برصاص الانكشاريين .. قالت: «جميل ما يحدث لكاتب بسبب كتاب .. بسبب كتاب يمكن أن تحب .. ويمكن أن تكره .. ويمكن أن تسجن .. ويمكن أن تحصل على جائزة .. ويمكن أن تغتال .. ويمكن أن تشرد .. وفى جميع هذه الحالات عليك أن تتذكر أنك كاتب وكاتب دون إضافات .. فأن تكون كاتباً يعنى أن تكون على استعداد لأن يحدث لك أى أمر من كل هذا مقابل حفنة من الكلمات .. كم من الأشياء حدثت لى بسبب كتاب! .. واليوم بإمكانى أن أضيف أنه بسبب كتاب قد تخسر كثيراً من أوهامك وترى كثيراً من القناعات تتهشم أمامك .. فالحياة

تستدرجك إلى عداوات أنت غير مستعد لها .. وعبثاً تبحث عن أعداء شرفاء .. ستقع فى فخ معارك لا نبل لأصحابها.. لأنك لا تدرى أن الطريق إلى النجاح محفوف بالأحقاد .. ولكن لا تهتم فأنت مدين لهؤلاء بنجاحك .. فلفرط خسارتك وبفضلها فقط أصبحت كاتباً .. فالكاتب الكبير يفضل على المكاسب الصغيرة خسارات فى حجم قامته لكونها المادة الأولية لأدبه .. كلما تقدمت فى الكتابة باللغة العربية غادرت عمر الوهم ودخلت فى سن الفجيعة».

وتأخذ نفسها بصعوبة قبل أن تضيف: «أى آفة هذه ؟.. وأى قدر يتربص بالكاتب العربى الناجح الذى يقف فى مسافة وسطية بين القتلة والمرتزقة ؟.. فهو بالنسبة للأولين متهم بالكتابة .. والذين يعادونه والذين قد يقتلونه لم يقرأوه ولم يحاولوا أن يفهموه أو يناقشوه إنما هم يحاسبونه على اختلافه عنهم لا على اختلافه معهم .. أما إذا نجا من هؤلاء فمرتزقة الصحافة يتربصون به ويريدون جثته ممددة للتمثيل بها .. لا بتهمة الكتابة هذه المرة بل بجريمة نجاحه فيها .. فالنجاح أكبر جرم يرتكبه كاتب عربى اليوم .. ذلك أن الإنسان العربى الذى عاش وسط الخرائب وتعاسة الواقع البشع قد تعود على الفشل حتى باتت تؤذيه نجاحات الآخرين فى أى ميدان كانت .. ولذا يظل يبحث لهذه النجاحات عن أسباب خارقة (أو خفية) وقد ينسبها إلى الجن أو الملائكة (أو للقوى الحكومية) لا تكريساً لفكر غيبى يتمنطق به وإنما تبخيس لمبدع ينتمي لأبناء جلدته وعشيرته .. ففى جبانة الأدب العربى الحديث أنت لا تجد قبوراً للأعمال الفاشلة فقط وإنما تعثر على حفر لوأد الإبداعات الجميلة وطمسها .. لأننا نستكثر على أنفسنا أى شئ جميل .. مثلما يرهب عجائزنا الفرح وتعتبره نذير شؤم».

إن الرصاص الذى أطلق على «أحلام مستغانمى» أصاب من قبل غيرها .. وسيصيب من بعد غيرها .. فمصدر النيران ثابت لا يتغير .. مصدره غريزة

العدوان التى تحول أنصاف الموهوبين من أرانب مسكينة إلى ديوك منفوشة الريش.. إن أغلبهم يأتى من عالم الظلام والإحباط.. وما أن يعرف أول مسحوق استحمام فى حياته .. ويلبس أول قميص نظيف فى حياته .. ويعرف كيف ينام على سرير حتى يتمرد على واقعه .. ويمزق كل تاريخه معه .. ولا يضيع وقته فى تنمية مواهبه.. ويسارع فى تسجيل اسمه فى نقابة «الحانوتية» قبل أن يفكر فى تسجيل اسمه فى نقابة الصحفيين أو فى اتحاد الكتاب .. فالقتل أسرع طريق يمكن أن يسلكه.. لماذا يوجع رأسه بالقراءة والكتابة والإبداع والبحث والمتابعة وكل من فعلوا ذلك غرقوا فى دمائهم؟.. إن ذلك ينطبق أيضاً على الفنانة التى تبيع جسدها عند أول خبير ينشر عنها فى صفحات الفن .. وينطبق على المهندس الذى يغش فى الطرق وفى المبانى عند أول عملية ينفذها .. وينطبق على الطبيب الذى يجد فى الإجهاض وسيلة للحياة ولو على حساب قتل الأرواح .. إنها مأساة الطبقة الوسطى التى بهدلوها وأفسدوها وأفقدوها كيانها قبل أن يفقدوها دورها .

وتتنهد «أحلام مستغانمى» تنهيدة موجعة من القلب وهى تضيف لهذه المأساة بعداً أنثوياً وتقول: إن الدنيا تقوم ولا تقعد عندما تبدع امرأة.. و «ثمة أفكار مسبقة لدى الرجال بكون المرأة لا يمكن أن تكتب أدباً صافياً لافتاً مؤثراً .. فإذا ما فعلت ذلك ينتظرون أول من يزرع الريبة ويشكك فى مصداقيتها» .. وكأن إبداع «الأنثى العربية ضرب من ضروب الخيال أو ضرب من ضروب الخوارق لأنها مقعدة على مستوى الخلق الأدبى .. وأن ما هو مسموح به لها لا يزيد على الإنجاب وتفجير مزيد من القنابل الديموغرافية».

«لذا .. فإن المسألة ليست مسألة «ذاكرة الجسد» ولا القضية قضية «أحلام مستغانمى» وإنما كوننا ننتمى إلى مجتمع عربى ذكورى يرفض الأنثى ويحتقر النساء حتى إنه ما ظهرت كاتبة أو شاعرة عربية إلا وجاء من يقول إنه لابد أن

رجلاً يكتب لها .. ولم نسمع أنه قيل حتى الآن عن رجل .. ولا أنه قيل عن كاتبة تكتب فى مجتمع آخر غير المجتمع العربى .. فعندما يقول العرب إن وراء كل رجل عظيم امرأة فإنهم بمفهوم المخالفة يعنون أن أمام كل امرأة مهما عظمت رجلاً».

ولم أكد أنتهى من قراءة ما قالته «أحلام مستغانمى» حتى رحت أحاول الاتصال بها على تليفونها المحمول .. لكن التليفون كان مرفوعاً من الخدمة .. كنت أريد أن أقول لها: إن لا أحد عاقل يجادل أحمق أو جاهلاً .. وإلا أصبح مثله .. وأن الذين يبحثوا عن دور أو ضوء .. أو الذين يريدون استرداد ما فقدوه من ضوء ودور لا يمكن الرد عليهم إلا بعمل جديد .. وإبداع يعمى عيونهم .. ويخرس أقلامهم .. فلا يمكن أن نقضى بقية عمرنا «نهش الذباب» على ما فعلنا .. ولا يمكن أن نقضى بقية عمرنا ندافع عن القيثارة التى وهبتها لنا السماء دون أن نملك وقتاً للعزف .. والكتاب أو الرواية أو الأغنية أو المقالة التى تكتبها إذا لم تقدر على الدفاع عن نفسها فلتذهب إلى الجحيم .

إن تاريخ الاعتداء على الموهوبين العرب هو تاريخ طاعن فى القدم.. وقد بقى هؤلاء الموهوبون .. وذهب الذين حاولوا اغتيالهم إلى نفايات التاريخ .. فالزبد يذهب جفاء ..ولا يمكث فى الأرض إلا ما ينفع الناس .

١٢ «بن لادن» سوبر ستار !

تصفه «المخابرات المركزية» بأنه «مغارة خفافيش» .. ويصفه «البيت الأبيض» بأنه «غابة استوائية من الطيور الجارحة» .. ويصفه «البنتاجون» بأنه «قنفد صحراوى خشن» .. وهناك أوصاف أخرى يحظى بها «أسامة بن لادن» فى الولايات المتحدة الأمريكية .. «الطاووس القاتل» .. «الشبح المسلح» .. «الشيخ الشرس» .. لكن .. لا أحد فى تلك الإمبراطورية الجريحة يريد أن يعترف بأنهم هم الذين قاموا بتحضير هذا «العفريت» وإن فشلوا فى القبض عليه أو إقناعه بالانصراف والعودة إلى «القمقم» الذى خرج منه.

لقد كان «بن لادن» فى عين «المخابرات الأمريكية» هو نموذج «المجاهد المسلم الورع الذى يحارب الكفار الشيوعيين فى أفغانستان» .. فى ذلك الوقت من منتصف الثمانينيات كان «الاتحاد السوفيتى» رمزاً للشر .. وكان تورطه فى «أفغانستان» الجبلية القاحلة فرصة ذهبية واستراتيجية للولايات المتحدة لإعلان حرب «تنكرية» تجهز فيها عليه .. فقد ارتدت ثياب «الشيوخ» .. ورفعت شعارات «المجاهدين» ..

وأمسكت بمسابح «ألفية» وراحت تحصى بها خسائر «الجيش الأحمر» السوفيتى الذى دخل هو وبلاده مرحلة العد التنازلى نحو الهاوية.

إن الدين كان دائماً غطاءاً سياسياً وعسكرياً منذ رفع الإنسان رأسه إلى السماء وعرف طريقه إلى الله .. إن «الإسكندر الأكبر» وفر ٢٠ ألف مقاتل من جيوشه عندما دخل «مصر» بحجة أنه جاء ليتعمد فى معبد «آمون» ليصبح الإمبراطور ذو القرنين ابناً للإله .. وحاول «نابليون بونابرت» أن يكرر الخدعة نفسها فأعلن أن «القرآن» ليس كتاباً سماوياً وإنما كتاب سياسى أيضاً .. ولم يتردد فى أن يعلن أن «الرسول» جاء إليه فى المنام وطلب إليه تخليص المسلمين من المماليك الفاسدين .. وساعة الجد دخل جنوده بالخيول جامع «الأزهر».

وأصر الرئيس الأمريكى الأسبق «رونالد ريجان» على استقبال وفود المجاهدين «الأفغان» فى مكتبه البيضاوى فى الدور الأرضى من «البيت الأبيض» ولم يتردد - وهو الممثل السينمائى السابق - فى أن يتقمص دور «المتسامح الورع» ويحدثهم عن خبرته «الإسلامية» العريضة ويعدد لهم فضائل الصيام فى شهر «رمضان» ويربط بين الصوفية الإسلامية والرهبنة المسيحية .. ولم ينس أن يكرر عبارة كتبت له فى «السيناريو» الذى حفظه أمام المرآة وهى: «إن إعجابه بالإسلام تضاعف لأنه الدين الوحيد الذى يفرض على أتباعه الجهاد» .. لكن .. هذا الإعجاب سرعان ما تحول - بعد أن سقطت الشيوعية وفقدت صلاحيتها كعدو استراتيجى من قائمة الكراهية الرأسمالية - إلى هدف واضح عندما أصبح «الإسلام» هو العدو وتحول المسلمون من «مجاهدين» إلى «إرهابيين».

فى تلك الأيام فى منتصف الثمانينيات ظهر على أستحياء «أسامة بن لادن» ..

إن ما لفت الأنظار إليه هو ثراؤه الواضح .. فهو ابن مقاول «سعودى» شهير هو «محمد بن عوض بن لادن» تمتد جذوره إلى «اليمن» يتمتع بسمعة طيبة أهلته لأن يقوم بعمليات التوسعة فى «المسجد الحرام» فى «مكة» والمسجد النبوى فى «المدينة» .. كما أنه نجح فى الحصول على عقد من حكومة «الأردن» لترميم «قبة الصخرة» .. وقيل إنه كان أحياناً يصلى فى يوم واحد فى هذه المساجد المقدسة الثلاثة .

إن «أسامة» هو أصغر أبنائه .. فقد ولد فى «يناير» عام ١٩٥٧ لينتمى إلى برج «الجدى» .. برج «جمال عبد الناصر» و «أنور السادات» و «ريتشارد نيكسون» .. ولد فى حى «الملز» فى مدينة «الرياض» .. وقد توفى أبوه قبل أن يصل إلى سن العاشرة .. ودرس فى منطقة «الحجاز» .. ثم التحق بجامعة «الملك عبد العزيز» وتخصص فى الاقتصاد السياسى .. وقيل إنه استكمل دراسته فى «تركيا» .. وقيل إنه عاش حياته بالطول والعرض ثم فى لحظة واحدة انتقل من الضد إلى الضد .. وأصبح رمزاً للتطرف والتشدد .. وهو ما جعل أشقاءه يتبرأون منه وإن بقوا ينفذون وصية أبيهم ويعطونه حقوقه المالية كاملة .. وهو ما جعل بلاده تسحب جواز سفره وتضعه على قوائم المطلوبين .. خاصة بعد أن عارض تحرير «الكويت» بقوات أمريكية .. وكان أن زار بلاده للمرة الأخيرة فى عام ١٩٩٠ .. وعندما خرج منها لم يعد .. فقد كانت الرحلة فى اتجاه واحد إلى المجهول.

ومنذ صغره وهو نحيف .. فوزنه الآن لا يزيد على خمسين كيلو جراماً .. وهو يعيش على حليب الماعز والتمر الجاف .. وهو نباتى لا يأكل اللحوم بأنواعها المختلفة .. وتبدو ملامحه حزينة .. ويندر أن يتذكر أنصاره أنه ضحك بصوت مرتفع .. وإن نجح بعضهم فى تذكر أنه ابتسم .. ويتسم صوته أيضاً بالضعف ..

وهو يكره مكبرات الصوت.. لذلك فقد بذل رجاله جهداً واضحاً ليسمعوه وهو يلقى بأبيات من الشعر فى يناير الماضى .. فى مدينة «قندهار» .. وكان ذلك فى مناسبة خاصة.. هى زفاف ابنه.. فكل أسرته ـ المكونة من أربع زوجات وثمانى أولاد ـ تعيش معه فى جبال وكهوف «أفغانستان» وتنتقل معه من مكان إلى آخر .

كانت «أفغانستان» هى البداية .. ففى عام ١٩٨٤ أسس «بن لادن» مكتباً لتقديم الخدمات للمجاهدين «الأفغان» فى مدينة «بيشاور» وكان يسانده فى ذلك الشيخ «عبد الله عزام» .. وهو فلسطينى لمع اسمه فيما بعد عندما اغتالته المخابرات الإسرائيلية بعد أن أعلن الجهاد على «إسرائيل» وساند منظمة «حماس» بخبرته التى جاء بها من «أفغانستان».. وهى خبرة فى حرب العصابات والتفجيرات والاغتيالات ليس من السهل الاستهانة بها لأن الذين قدموها كانوا خبراء يتسمون بالكفاءة فى «المخابرات الأمريكية».. وهذه الخبرة هى التى عانينا منها فى العمليات الإرهابية التى اجتاحت مصر بعد نهاية الحرب فى «أفغانستان» .. ونفذها من أطلقنا عليهم «العرب الأفغان» وهم أيضاً الذين أشعلوا الدنيا فى باقى العالم العربى من «الجزائر» إلى «اليمن» .. وهؤلاء نقلوا بدورهم هذه الخبرة «الأمريكية» النادرة إلى أجيال جديدة .. راحت تضيف وتبتكر.

كان «بن لادن» فى تلك الفترة يتكفل بالتمويل .. فلم يكن مقيماً إقامة دائمة هناك .. كان يكتفى بزيارات لا تدوم أكثر من شهرين فى السنة .. لكن .. فى نهاية عام ١٩٨٦ أنشأ معسكراً وضع فيه المتطوعين «العرب» فقط .. وكان قريباً من الحدود الباكستانية فى منطقة منبسطة وبها عيون مياه طبيعية هى منطقة «جاجيا».. وفى هذا المعسكر تدرب نحو ٢٠ ألف شاب .. وكان برنامج التدريب على ثلاث

مراحل .. تستغرق ستة أشهر .. وكان المدربون من ٢٥ جنسية مختلفة .. وجاءت البرامج مترجمة من «لانجلى» مقر وكالة المخابرات «المركزية» على بعد ١٥ ميلاً من «البيت الأبيض» و «البنتاجون».

فى هذا المعسكر الذى سمى «الأنصار» ولدت أسطورة «بن لادن» .. كان المعسكر قد تعرض إلى هجوم مكثف من القوات السوفيتية وانسحب معظم من فيه ما عدا «بن لادن» ومجموعة صغيرة لا يزيد عددها على ١٨ شخصاً .. ونجحوا فى الصمود والبقاء على قيد الحياة أسبوعين تحت وابل من الجحيم .. وعندما خرجوا سالمين كانت الأسطورة قد طارت إلى أربعة أنحاء العالم الإسلامى .. ودعم انتشارها أن صحيفة «واشنطن بوست» كتبت عنه تقريراً مطولاً لم تنس فيه أن تضع على صدره كل أوسمة الشجاعة والبطولة .. ووصفته مجلة «نيوزويك» بأنه «سوبر مان تقى» .. «ويتمان ورع» .. و «جيمس بوند يصلى لله خمس مرات فى اليوم» .

فى حواره مع قناة «الجزيرة» قال «بن لادن» : إن الدول العظمى خرافات يسهل تحطيمها بالأسلحة الصغيرة .. الألغام .. والقنابل اليدوية .. ومدافع «آر بى جى» المحمولة على الأكتاف .. إن أشد المدرعات صلابة لها نقطة ضعف يمكن النفاذ منها .. وكأنه يتحدث عن كعب «أخيل» الذى أمسكت به الآلهة من كعبه ووضعته فى ماء الخلود الذى يحميه من السهام القاتلة .. وقد كان كل جسمه محمياً إلا كعبه الذى لم يلمس ماء الخلود .. فكان نقطة ضعفه .. وموقع موته .. ويعتقد «بن لادن» : إن الولايات المتحدة أضعف من الاتحاد السوفيتى ..

فالامبراطوريات المترفة يسهل إسقاطها .. ويسهل إيلامها .. وهى نظرية شهيرة فى تدمير الحضارات .. التدمير بالافراط فى المتعة .. والقسوة .. أما هو «بن لادن»

فيرى أن قوته النفسية تضاعفت عندما فقد إحساسه بالثروة والمبالغة فى المتعة وسبل الراحة الجسدية وأصبح جزءاً من الطبيعة حوله .. والطبيعة أرحم على الإنسان من الماكينات والأجهزة المعقدة حتى لو كانت هذه الطبيعة هى جبال «أفغانستان» القاحلة.. القاسية .

لم تنته الحرب فى «أفغانستان» بهزيمة السوفيت وخروجهم منها فقد راحت فصائل المقاتلين تتصارع فيما بينها على السلطة فتحولت الحرب إلى صراعات أهلية الحرب قد أصبحت هدنة فى حد ذاته .. وحاول «بن لادن» أن يوفق بين «الأشقاء الأعداء» ولكنه فشل فى مهمته بعد اختياره رئيساً للجنة المصالحة .. وهو ما جعله يترك «أفغانستان» ويرحل إلى «السودان» فى صيف عام ١٩٩٢ .. لكنه لم يستقر فى «الخرطوم» .. وإنما استقر فى «عطبرة» وراح يشرف على زراعة نصف مليون فدان كان يتصور أنها ستنقله من القتال إلى الزراعة وتنقل الفقراء من الحاجة إلى الوفرة .. فـ «السودان» ـ الذى يموت الناس فيه من الجوع ـ يمكن أن يكون «سلة طعام العالم» .. على أنه لم يطق الاستقرار طويلاً .. ولم يرتح بعيداً عن الخطر .. ولم يقدر على النوم دون أصوات الانفجارات .. فأعاد من جديد تنظيمه السرى المسلح وأطلق عليه هذه المرة «القاعدة» .. «القاعدة التى تنطلق منها جيوش المؤمنين لتحرير المسلمين من المشركين على حد قوله» .

يقول تقرير مدير وكالة المخابرات المركزية «جورج تينيت» : «إن بن لادن يتمتع بقدرة كبيرة على فعل ما يريد وأكثر ما يسعده أن يعيش وسط مقاتليه وهو قادر على التخفى بعيداً عن تناول أحد .. ولا يتحرك من منزل إلى منزل إلا تحت حماية فرقة أمن مدججة بأسلحة ثقيلة وسيارات ذات دفع رباعى مظللة النوافذ ..

ويقوم بمعظم أسفاره تحت جناح الليل ويندر أن يراه أحد ويستخدم وسائل تجمع بين أكثر من قرن .. فهو يستخدم ظهور الجياد لنقل قرص كومبيوتر مدمج عليه شفرة مليئة بالمعلومات والتعليمات الى أى خلية من خلاياه فى أى مكان فى العالم .

ولعل أكثر ما يحير الأمريكيين هى الشفرة التى يستخدمها «بن لادن» فى عملياته .. فهو يستخدم كلمات أمريكية ومصطلحات اقتصادية .. فذات مرة أطلق على نفسه «مستر سام» أو «أونكل سام» .. وكان ذلك آخر ما يخطر على بال الأمريكيين .. ووصف مكتب التحقيقات الفيدرالية باسم «صناعة الأغذية والمشروبات الأمريكية» .. ووصف رجاله بأسماء «ألف ليلة وليلة» المسحورة .. فى اشارة إلى الحكايات الخرافية.

إن المخابرات المركزية وضعت «بن لادن» هدفاً لا تحيد عنه منذ أن وقعت التفجيرات فى المنشآت الأمريكية فى «السعودية» فى عامى ١٩٩٤ و١٩٩٦ وزادت الرغبة فى وضع أيديهم على عنقه بعد التفجيرات التى وقعت فى سفارتى «كينيا» و «تنزانيا» فى عام ١٩٩٨ ..

ورصدت الأجهزة الأمريكية نحو ١٠ ملايين دولار للتوصل إليه لكنها لم تفلح.. وهو ما جعلها تفكر فى أن تنساه وتعيد النظر فيه .. وهو ما قالته مجلة «نيوزويك» فى عدد ١٩ «يونيو» الماضى وأضافت: «إن مهارة بن لادن فى المراوغة جعلت المخابرات الأمريكية تعيد التفكير فى أسلوب تعاملها مع عدوها الأول.. لقد أدركت أنه يزدهر فى عزلته.. وأن جهودها الفاشلة فى مطاردته صنعت منه بطلاً شعبياً فى العالم الإسلامى.. بل إن مشاعر البسطاء فى العالم غير الإسلامى وضعته فى المرتبة نفسها بعد أن وجدت نفسها مسحوقة فيما يسمى بالعولمة الأمريكية».

والغريب أن التقرير الأخير عن الإرهاب الذى صدر عن الخارجية الأمريكية لم يشر إليه فى الفقرة الخاصة بالتفجير الانتحارى لنسف المدمرة الأمريكية «كول» فى «اليمن» وتفجير السفارتين فى «كينيا» و «تنزانيا» وهى حوادث اتهمت الولايات المتحدة بن لادن علناً بالتورط فيها .. وتضيف «نيوزويك»: غير أن استراتيجية واشنطن الرامية إلى إبعاد الأضواء عن بن لادن ربما جاءت بعد فوات الأوان، ففى مخيمات اللاجئين الأفغان فى باكستان أصبح اسم أسامة شائعاً بين الأطفال وعلى واجهات المحلات التجارية وورش إصلاح السيارات .

والحقيقة أن الولايات المتحدة لم تطق صبراً على تجاهل «بن لادن» .. فقد وجدته الشماعة الجاهزة التى تعلق عليها ما جرى يوم الثلاثاء الأسود فى «نيويورك» و «واشنطن» .. لقد رفضت الأجهزة الأمريكية المختلفة التوقف لفحص ما جرى ووجدت متهماً جاهزاً تلبسه الحادث الذى يجمع كل الخبراء على أنه نفذ بطريقة محترفة لا تتوافر لجماعة «بن لادن» .. ولكن إلى أن تتكشف الأسرار ويكون الجميع مستعداً لتقبل الحقيقة سيظل «بن لادن» الفاعل الخفى .. وهو ما ضاعف من نجوميته .. وسارع بتحويله من إرهابى مساهم فى قتل المسلمين بواسطة من عرفوا بالعرب «الأفغان» إلى بطل شعبى وأسطورة تستحق أن تتحرك له كل جيوش القوة فى العالم .. لقد صنع الأمريكيون منه «سوبر ستار» .. ولن يكون من السهل إعادته مرة أخرى إلى الظل .

١٣ هو.. سلطان قانون الوجود

هل أراد «يوسف» أن يثقب الكون بسن قلمه أو بسن غضبه .. هل حاول ولو مرة واحدة أن يغير بيت البرق الذى يسكنه .. هل كان البحر الذى يمتد أمامنا يا «رجاء» هو الكائن الحى الوحيد القادر على كتابة سيرته الذاتية .. كيف حافظت على عريضة الاحتجاج وعلبة الكبريت اللتين نزل بهما من بطن أمه .. ما الذى كان يحرضه على أن يخرج لسانه لكل إشارات المرور الحمراء وهو يندفع بجنون نحو الهاوية .. كيف أجبرنا على أن نمشى وراءه فى مظاهرة لا تنتهى من أجل الحرية .. كيف استقل عن الجوقة الموسيقية وسلطة الإيقاع العام ليؤلف نغمته الخاصة ويمشى وحيداً على ضفاف لغته؟.

ويوسف هو يوسف إدريس .. ورجاء هى رجاء الرفاعى زوجته .. أو رجاء إدريس كما يعرفها الجميع .. أما البحر فهو بحر الساحل الشمالى فى مارينا .. حيث كان يوسف يعود طفلاً يلاعب الأمواج لعبة المصارعة الحرة .. دون أن يبنى قصوراً من رمال .. وحيث سمعته جنيات الماء وهو يقول: «إن العالم سجن كبير من القسوة يجبرنا على الوقوف فى الطابور كل صباح لنقسم أننا لا نتعاطى الحرية وأن

كل ما نفرح به هو علبة سجائر مهربة من وراء الحراس .. لكن دخان السجائر لم يعد إلينا نصف أصابعنا المحترقة .. ولا نصف دفاترنا المصادرة .. ولا نصف ضمائرنا المنهوبة» .. وهل نسيت عبارته الموجعة التى لا تزال تقطر خلاً على جراحنا المفتوحة: «إن كل الحرية الممنوحة فى العالم العربى لا تكفى نصف كاتب واحد» .

كأنه كان موجوداً فى مكانه .. فى مقعده .. يقرأ جرائده .. يدخن سجائره .. يملأ الدنيا حركة ولا يهدأ .. فمن الذى قال إنه ليس بيننا .. من الذى قال إنه اختار حر أغسطس ليرحل عنا منذ ٨ سنوات .. لا هو غائب .. ولا الناس كفت عن زيارته .. ولا رجاء إدريس تتكلم عنه بضمير الذى كان .. لقد تركتها تتكلم دون أن أتدخل .. فقد شعرت أنها تكلمه .. ولا تكلمنى .

هو مثل ثمرة «التين الشوكى» .. لابد أن يتألم كل من يعاشرها قبل أن يحظى بها .. هو مثل بركان النار .. لابد أن يحترق كل من يلامسه قبل أن يتفجر حباً وإبداعاً وخصوبة .. لكنه فى النهاية طفل .. الحنان مفتاحه .. الحب احتياجه .. الدفء أغلى أحلامه .. الإحساس بالأمان هو الجائزة التى ظل ينتظرها طوال عمره .. تقول رجاء: «كان موظفاً فى وزارة الصحة .. عندما رأيته أول مرة .. كان مفتش صحة الدرب الأحمر .. لم يكن يوسف إدريس الذى نعرفه .. كان قد قدم نفسه بقوة فى مجموعته الأولى «أرخص ليال» التى كتب مقدمتها الدكتور طه حسين .. لم أكن سمعت عنه .. وجدته أمامى على عتبة بيت شقيقتى فى بيت بشارع المبتديان كان يسكنه .. كان جار شقيقتى .. فى لحظة واحدة حدثت الشرارة .. طرق الباب وطلب أن يتكلم معى .. أصيبت شقيقتى بالذعر .. كان عمرى ١٧ سنة وكنت مخطوبة لطبيب أيضاً .. لم أنكر أننى أعجبت به .. لكن .. لا أحد فى ذلك الوقت كان يقدر على مواجهة هذه الجرأة .

«فاتح زوج شقيقتى الأخرى إسماعيل الحبروك فى موضوع الزواج منى .. لم يرض بأى عذر .. حتى بخطبتى لآخر .. فوجئ الجميع بأننى أقبل الزواج منه .. من هى المرأة التى تقاوم رجلاً يقتحمها بهذا الجنون .. ثم إنه أصبح مصوراً فى مياه عيونى .. شعرت بأن الأرض بدونه لم تعد تدور .. لكن .. جنونه لم يتوقف .. فوجئت برسالة منه يعتذر فيها عن الزواج منى .. كانت مبرراته .. أنه يكبرنى بحوالى ١٢ سنة .. وأنه رجل يحترق بالشك والغيرة .. وأننى لن أحتمل فناناً بكل هذا الهذيان الفنى .. قرأت الرسالة .. فقلت لنفسى: لن أتزوج إلا من هذا الرجل .. وقد كان .

تقول رجاء: «بدأ بالخطوبة .. وبعد يوم قال: خطوبة وعقد قران .. وبعد يوم آخر قال: خطوبة وعقد قران وزواج .. دفع مهراً ١٠٠ جنيه .. لكن كنا مفلسين ونحن نبدأ رحلة شهر العسل إلى شاطئ رأس البر .. فلم نجد سوى المهر ننفقه فى شهر العسل .. وعندما عدنا إلى الواقع كان علينا أن نواجه الحياة بمشاكلها المادية .. لم يكن قد احترف الكتابة .. كان دخله من وظيفة الحكومة ٢٥ جنيهاً .

تقول رجاء: «لم أواجه معه مشاكل مادية .. مشاكلى معه كانت نفسية .. طباعه حادة .. مزاجه متقلب .. جنوحه الفنى صارخ .. غيرته كرجل لا حدود لها .. وأنا فتاة صغيرة مدللة بلا خبرة .. درست علومها بالفرنسية .. لم تكن تميل للقراءة بالعربية .. كان يمكن أن أهرب من هذا الجحيم الذى يمشى على قدمين ويتنفس ويبحث عن مكان فى الشمس .. وليس تحتها .. لكنه الحب الذى هو من عند الله الذى كان يعيد النور بعد الظلام .. ويعيد السكينة بعد العاصفة .. ويعيد الصفاء بعد الفناء .

«الحب هو ما يحتاجه الفنان البرى الذى يكبش النجوم بيده ويحترق بها ويصاحب البراكين والزوابع ولا يستغنى عنها .. الحب الذى يعطيه الحنان .. ويشعره بأنه

صغير يهدأ على صدر أمه بعيداً عن كل الذئاب التى تطارده .. الحب الذى كان متعطشاً له ٢٤ ساعة فى اليوم .. لينسى بحنانه شقاء أيام الطفولة التى يتعذب بها كل من خرج من طمى الريف وقسوته .. الحب الذى يطمئنه وهو يخرج شياطين الابداع من جسده في تجارب عنف وشراسة لا يحتملها بشر.. هم موظفون فى الحياة.. موظفون فى العشق .. موظفون فى علاقتهم بالمرأة .

«الفنان هو شخص غير متوازن .. لو توازن أصبح سائق تاكسى .. أو محاسباً قانونياً .. أو شرطياً ينظم السير .. ويوسف هو فنان حقيقى .. لا يعرف المنطقة الوسطى بين الأبيض والأسود .. بين الجنة والنار .. بين العقل والجنون .. بين الحب والتدمير .. بين الماء واللهب .. بين الحرب والهدوء .. عرفت ذلك .. فعرفت كيف أحتمله ٣٥ سنة .. ومهما كان الحريق .. ومهما كان الغبار .. فقد خرج من وسط الدخان الكثيف مبدع لم يكرر نفسه ولا كرر غيره ولا تكرر .

لا أشعر بالرغبة فى مقاطعة رجاء .. فهى فى حالة وحى وهى تتحدث عن يوسف .. بل ربما لم أجد نفسى قادراً على رشف خيوط القهوة حتى لا أخرجها من اندماجها وهى تتجول فى خريطة يوسف التى رسمها برماح وحراب فاتح مغولى.. يهبط فجأة من جواد غزواته ليقطف زهرة ويقدمها لها .

تقول رجاء: «يوسف .. قبل الكتابة .. كان يمسك بأى شئ فى يده ويحطمه .. جهاز راديو .. جهاز كاسيت .. كان تفكيك الأشياء يريحه ويخفف من القلق المدمر الذى يجتاحه قبل أن يصافح شياطينه المبدعة.. مازلت أحتفظ بعشرين جهازاً كهربائياً دمرها .. قطعها المتناثرة دفعت ثمن إبداعه الذى ما كان يخرج من صلبه دون تكسير .. يهدأ قليلاً .. يطلب منى أن أبقى أمامه .. وكأنه فى حاجة لمن يحميه من نفسه فى هذه اللحظات .. أظل أمامه حتى يندمج فى المخاض .. أسمعه يكلم نفسه .. يكلم أبطاله وهو يخلقهم من لحم ودم .. وكثيراً ما كان يتشاجر معهم

فيحرك يده فى الهواء .. ويكاد يضع أصبعه أو قلمه فى أعينهم.. فى اللحظات ـ التى يقفز البشر الذين خلقهم إلى الوجود ـ أنسحب من أمامه.. ويقتصر دورى على فنجان قهوة .. أو كوب من الحليب .. أو خفوت فى الإضاءة.

«كان علىّ أن أحميه من نفسه .. من تدمير ذاته .. كان علىّ أن أخفف من اشتعاله الداخلى حتى لا يحترق .. فليدمر البيت ولا يدمر نفسه .. فليحرق ما حوله ولا تلسعه نيرانه وبراكينه .. ورغم تعبى وعذابى لم يكن أمامى مفر من أن أحتمله.. كان يستحق أن أحتمله .. وأن أحافظ على الطفل الذى يجرى فى شرايينه .. وأرعاه .. وأطمئنه.

«درست من جديد .. وصلت إلى معهد التذوق الفنى والأدبى .. حاولت أن أمنحه عقلى فى صورة جديدة بعد أن منحته روحى فى صورتها الطبيعية .. لقد قرأت لك مرة: «إنك تفخر أنك موجود فى زمن يكتب ويتنفس ويقاتل فيه يوسف إدريس» فكيف لا أشعر بالفخر بأننى أقرب مخلوقات الله إليه؟.. كيف لا أشعر بأننى «ست» العالم وهو لا يقبل أن يدخل البيت إذا لم يجدنى فيه .. فالبيت ليس بيتاً آمناً بدونى.. هل حظيت امرأة بهذا الوسام من قبل؟.

«لم يكن الربيع يشبهه .. كان أقرب للصيف .. خاصة وهو يكتب .. طلقة ساخنة من الحرارة واللهب تخرج منه مرة واحدة .. وقصة مكتملة.. يتوقف أمام زوجة بواب وجهها أصفر وبها مسحة من الجمال لم تقدر على مقاومة الفقر .. فيكتب «النداهة» .. يحزنه خادمة صغيرة تحمل الكثير فوق رأسها الصغير وتحلم بأن تلعب مع أقرانها .. فيكتب «ناصرة» .. لكن القصة التى أحبها وأحفظها هى قصة «لعبة البيت».. قصة صبى وفتاة يلعبان لعبة الحياة.. لعبة الرجل والمرأة.. لعبة الزواج.. وقد سميت اسم ابنى الأكبر سامح على اسم بطل القصة .. وكان يوسف يريد أن يسميه محمداً.

في كثير من الأحيان كان يوسف يحلم بالقصة التي سيكتبها .. كان يعيشها في عالم آخر .. يستدعيها من هناك .. ثم يقوم فزعاً باحثاً عن ورقة وقلم ليسكب عليها ما جاء له في المنام .. وكنت دائماً جاهزة للاستيقاظ .. وجاهزة بالورق والقلم .. يا له من مصالحة غريبة بين الضوء والعتمة .. بين الحلم والواقع .. بين الماء والحرائق.. ليس لابداعه ذاكرة .. فكل قصة جديدة لا تشبه ما سبقتها .. وكل شخصية تولد على سن قلمه لا تشبه شقيقاتها .. إبداعه لم يعرف التكرار .. ولا التشابه .. ولا يعترف بنظرية عيون الصينيين التي يصعب التفرقة بينها .

أقول لها .. إنه لم يكن مبدعاً آمناً .. كان ينتظر الغدر من جلده ولحمه .. كان يخاف من هذه اللحظة ويتوقعها .. ورغم أنها لم تأت فقد كان يخشاها ويغشاها .. ولعل إبداعه ظل مطارداً بقلق مزمن منها .. إننا لو وجدنا الغدر من الغرباء والأعداء جرينا لمن نحب نلوذ بهم .. لكن لو جاء الغدر ممن نحب فإلى أين نذهب .. وبمن نحتمي؟.. إنها البرودة والغربة والوحشة التي كانت تهز مفاصل أبطاله .. وتهزه .

تسرح رجاء في الأفق البعيد .. تسكت قليلاً .. وكأنها تنتظر إجابته على ملاحظتي .. تقول وكأنها تعيد ما يقوله الوحي: كان لابد أن نصبح أصدقاء .. والأصدقاء لا يخشون الصراحة ولا الاعتراف بالأخطاء.. كان يكشف لي عوراته وعيوبه وأخطاءه .. وهو ما جعل الحب بيننا يكبر يوماً بعد يوم ولا يحال إلى التقاعد .. والحب الذي كبر إلى هذا الحجم هو الذي صنع معجزة البقاء والاستمرار والسكن الدائم في قلوبنا .. لم أجرحه يوماً .. ولم أحاسبه يوماً .. كان رصيده من الحب والإبداع يتجاوز كل خسائر في الحياة .

لا أحد عرف يوسف وصادقه من لقاء عابر في مقهى .. لا أحد لم يعرفه ويصادقه إلا في غبار المعارك التي ملأ بها الحياة الأدبية والصحفية والسياسية .. كانت كتاباته المفخخة تصنع علاقة متينة لا تحدث إلا في الحرب وتحت السلاح .

أنا شخصياً لم أشعر بصداقته إلا بعد أن خضت معه معركة كان خصمه فيها وزير الثقافة الأسبق عبد الحميد رضوان الذى وصفه بوصف بأنه كاتب «مخدر» .. وقامت الدنيا ولم تقعد .. فها هو واحد من الأعيان وتجار المواشى يحتل وزارة الثقافة ويسب أبرز رموزها فى المسرح والقصة القصيرة .. ها هو يتجاوز حدوده .. ويتصور أن الوزير أهم من المبدع .. والمنصب أهم من الفن .. وقد غضب الناس مما فعل الوزير وطاردوه بأكثر من ألف خطاب كان يصل إلى يوسف يومياً .. وليس من الصعب أن نؤمن الآن بعد مرور هذه السنين بالقاعدة الخالدة التى تؤكد أن الحكومة تذهب والموهبة تبقى .

ولم تكن هذه هى المعركة الوحيدة التى خاضها يوسف .. بل ربما كانت أضعف المعارك .. فقد دخلها ووثيقة الفوز بها فى جيبه .. ولعل أصعبها كانت معركة جائزة نوبل التى حرم منها .. والتى لم يتردد البعض فى رجمه بالطوب والحجارة بسببها .

وتسرح رجاء فيما أقول .. وتقول: إن موهبة يوسف كانت فى حاجة إلى حماية .. لكن البعض كان لا يتردد فى تدميرها .. وكأنه لا يكفيهم رغبته فى تدمير نفسه .. حتى الأدباء الشبان الذين قدمهم ودافع عنهم لم يتركوا نصيبهم فى الهجوم عليه .. وفى النهاية والبداية كان مثل بطل قصته الصبى الذى كان يهرب من العالم إلى جوف شجرة يحتمى بظلالها وأوراقها .. وكأنها هى الأم .. وعندما قلت لرجاء: إنك فى حياة يوسف كنت هذه الشجرة .. لم تجب .. ووجدت عينيها تبرق بالدمع .. وعندما قلت لها: إنه سلطان فى قانون هذا الوجود كما قال عن الأقوياء فى عالمنا .. عادت الشمس إلى وجهها من جديد .

١٤ البريد لا يعرف عنوان الوطن الشريد !

هو القائل: «تضيق بنا الأرض وتحشرنا فى الممر الأخير فنخلع أعضاءنا كى نمر» .. هو القائل: «نسافر كالناس .. لكننا لا نعود إلى أى شئ .. كأن السفر طريق الغيوم» .. هو القائل: «إننا نعانق قاتلنا كى نفوز برحمته» .. هو القائل: «يطول العشاء الأخير .. تطول وصايا العشاء الأخير .. أبانا الذى معنا .. كن رحيماً بنا .. تمهل لنسأل أكثر مما سألنا» .. وهو القائل: «أريد مزيداً من العمر كى نلتقى» .. «أريد مزيداً من الأغنيات لأحمل مليون باب .. وباب» .. «أريد مزيداً من العمر كى يعرف القلب أهله» .

هو محمود درويش .. الذى يهوى الشعر والبحر والسفر والسهر .. وقراءة طالع أوراق الشجر .. ويؤمن بأن الحب يعلمنا ألا نحب .. ويتركنا فى مهب الوطن .

قابلته أخيراً ذات صباح فى بيت محمد حسنين هيكل .. بلغة الشعراء.. دخل علينا مثل غمامة .. مثل سحابة حبلى بالخير والمطر.. كنا نتحدث عن مأزق الصحافة المطبوعة فى زمن سلم نفسه للصورة التليفزيونية الملونة وغطى نفسه باللحاف وراح فى سبات عميق .. أو راح يدق على أزرار الكمبيوتر باحثاً عن

فاترينة مجنونة بالجاذبية والإثارة تدلل نفسها باسم «الإنترنت» .. كنا نفكر فى صورة قارب النجاة التى على الصحافة المطبوعة أن تركبه لتنجو بنفسها من الغرق فى هذا الطقس الإعلامى الذى يحاصرها من الخارج بالعواصف والأعاصير .. ويطعنها من الداخل بالإحباط وجلد الذات والنميمة .

فى تلك اللحظة دخل علينا محمود درويش .. هل كان يبدو مثل طالب جامعة ترك محاضراته ليقابل فتاته فى جزيرة مهجورة ؟.. ربما .. هل كان يبدو مثل طبيب جراح وجد وطنه فجأة فى غرفة التخدير مصاباً بثقب فى القلب ؟.. ربما .. هل كان يبدو مثل باحث أكاديمى متمرد رفض الدراسات والإحصاءات ودخل يفتش عن حقيقة الدنيا فى ظلام دار للسينما ؟.. ربما .. وألف ربما .. لكن المؤكد أنه محمود درويش .. الشاعر الذى نحبه عاشقاً للوطن .. والمرأة والحرية والحياة والقاهرة .. جاء يحمل آخر دواوين شعره إلى صديق لم يفقد اهتمامه بما يجرى فى فلسطين .. الأرض المقدسة التى لم تخمد فيها النار .. منذ أن كان صحفياً فى أول العمر المهنى إلى أن صار كاتباً كبيراً شهيراً يصر على تغيير جلد العالم العربى .. ودمه .

سمحت لنفسى بأن أقرأ إهداء الشاعر إلى الكاتب .. إهداء يتساءل عن علاقة الشعر بالحب .. وإهداء يؤكد أن القصيدة لا تحظى بشرعيتها إلا بقراءتها .. لكن .. قبل الإهداء: قال محمود درويش منزعجاً: سلامتك .. يا أستاذ هيكل .. لقد سمعت أنك أجريت جراحة دقيقة ؟.. وضحك هيكل .. إن ساعة الشعر دائماً متأخرة .. فالجراحة التى يتحدث عنها محمود درويش هى جراحة عمرها أكثر من سنة ونصف سنة أجراها هيكل فى مستشفى «كليفلاند» الشهير فى الولايات المتحدة .. وكانت فى إحدى كليتيه .. وقد أزيل منها نحو ١٨ ٪ لتعود إلى نشاطها بالحماس نفسه .. فهذه حكمة الله فى خلق الكلى .

وأغلب الظن أن محمود درويش لم يعرف بجراحة هيكل لأنه هو نفسه كان يجرى فى الوقت نفسه تقريباً ـ جراحة فى القلب .. بل إن ديوان «جدارية» الذى حمله إلى هيكل يسجل شعراً تجربته مع هذه الجراحة الخطيرة .. وفيه يقول: «وكأننى مت قبل الآن .. أعرف هذه الرؤيا وأعرف أننى أمضى إلى ما لست أعرف .. ربما مازلت حيا فى مكان ما .. وأعرف ما أريد .. سأصير يوماً ما أريد» .. «سأصير يوماً فكرة» .. «سأصير يوماً شاعراً» .. «سأصير يوماً كرمة» .. «سأصير يوماً ما أريد» .. «لا القوة انتصرت .. ولا العدل الشريد» .. «أنا العناوين الصغيرة والبريد» .

كان محمود درويش قد تلقى دعوة لإلقاء شعره فى معرض الكتاب .. لكنه تردد فى الحضور بعد أن اشتعلت الحرب الأهلية بين وزير الثقافة وجماعات ضاغطة من المبدعين والمثقفين .. فاتصل محمود درويش بمجموعة من أصدقائه فى القاهرة كان على رأسهم هيكل ليسألهم المشورة .. فأقنعه هيكل ـ أو أفتى له على حد قوله ـ بالحضور .. وعندما جاء شعر أن جمهور الثقافة بخير .. لكنه لم يعرف بالضبط كيف يتعرف على جمهور الشعر .. أو كيف يتعرف على جمهوره بالتحديد .. فجمهور الندوات ثابت فى مكانه لا يتغير .. تتغير الندوات .. ويتغير المتحدثون على المنصة .. ويتغير الموضوع .. والجمهور ثابت لا يتغير .. ويبدو أن هذا الثبات جعل الجمهور يشعر بأنه فى بيته .. فكان الصخب .. والحوارات .. العائلية .. وأحاديث التليفون «المحمول» الذى لم نضع قواعده الاجتماعية بعد .

لكن .. مهما يكن فإن محمود درويش كان يشعر بأنه خفيف كالريشة .. كبيت شعر فى قصيدة لم تكتب بعد .. إن القاهرة صاخبة .. فائرة .. لكنها ساحرة .. عامرة .. آمنة .. تحتضن المواهب المتفجرة .. وقد اقترح هيكل على محمود درويش أن يعيش فيها .. لقد زهق محمود درويش من سنوات الغربة فى باريس .. وخنقته الحياة فى رام الله .. وعمان تمنحه بعض الهواء .. إنها مأساة أن يجد

الشاعر نفسه مجبراً على الإقامة فى بلاد لا توحى له إلا بشعر المراثى .. بلاد تمتد من البكاء إلى البكاء .. ومن النزيف إلى النزيف .. وجميع مدنها كربلاء.

لقد رفض هيكل فى أحلك الظروف السياسية التى مر بها أن يهاجر ويعيش بعيداً عن مصر .. كان يقول: إن الإنسان مثل الشجرة .. لو اقتلعتها من تربتها أصبحت مجرد لوح ميت من الخشب .. كان يقول: خارج الوطن ليس لى بيت ولا قبر .. ولكن .. هيكل كان له حق الاختيار .. أن يبقى أو يرحل .. أما محمود درويش فلم يكن له هذا الحق.. فهو إما أن يرحل أو يرحل .. فالوطن فى كثير من الأحيان لا يزيد على خيمة متحركة على أرض غير مستقرة .. غير معروفة .. لقد ضاقت الأرض به .. وسار إلى بلاد ليست من لحمه ولا عظامه .. لا يعرف حجارتها ولا عيون الناس فيها .

ولا أنسى قصيدته «مطار أثينا» التى كتبها بعد أن طرد الفلسطينيون من بيروت بعد الاجتياح الإسرائيلى .. مطار أثينا يوزعنا للمطارات .. قال المقاتل: أين أقاتل؟.. صاحت به حامل: أين أهديك طفلك؟.. قال الموظف: أين أوظف مالى؟.. فقال المثقف: مالى ومالك؟.. قال رجال الجمارك؟.. من أين جئتم؟.. أجبنا: من البحر.. قالوا: إلى أين تمضون؟.. قلنا: إلى البحر .. قالوا: وأين عناوينكم؟.. قالت امرأة من جماعتنا: بقجتى قريتى .

«فى مطار أثينا انتظرنا سنين .. تزوج شاب فتاة ولم يجدا غرفة للزواج السريع.. تساءل أين أفض بكارتها؟.. فضحكنا وقلنا له: يا فتى لا مكان لهذا السؤال .. وقال المحلل فينا: يموتون من أجل ألا يموتوا .. يموتون سهواً .. وقال الأديب .. مخيمنا ساقط لا محالة .. ماذا يريدون منا؟.. وكان مطار أثينا يغير سكانه كل يوم .. ونحن بقينا مقاعد فوق المقاعد .. ننتظر البحر .. كم سنة يا مطار أثينا؟».

لم يكن من الممكن أن يلتقى هيكل ومحمود درويش بالموعد وأنا معهما بالمصادفة

دون أن يصل الحوار - وبسرعة - إلى ما يجرى فى إسرائيل؟.. وكان اللقاء قبل الانتخابات الإسرائيلية بأيام قليلة .. وكان من الطبيعى أن تفرض تطوراتها واحتمالاتها نفسها على الحوار .. قلت: إن شارون يغازل المتطرفين والمتشددين ويحلم بتحويل الصراع إلى صراع دينى .. إن زيارته للمسجد الأقصى فى الصيف الماضى .. وتصريحاته الأخيرة التى ينكر فيها إسراء النبى محمد ستشعل نيران التعصب وتمزق مساحة الرحمة والمودة بين الإسلام واليهودية.

قال محمود درويش: إن شارون يأتى ليعيد فكرة التمسك بالأرض التى يعتقد الإسرائيليون أن باراك قد فرط فيها .. وهناك إجماع على فظاظته .. لذلك فإن تصويتهم له ليس حباً فيه وإنما كره فى باراك .. وهو سيحاول أن يحسن صورته .. سيحاول أن يتصرف كرجل دولة .. ولن يتردد فى أن يشكل حكومة ائتلافية يضم فيها وزراء من حزب العمل .. إن وجود حزب العمل فى حكومته سيرفع عنه النقد القاسى - الذى يصل أحياناً إلى درجة السب العلنى - فى الولايات المتحدة التى تتعامل مع حزب العمل بقدسية تضعه فوق النقد .

واستطرد: إننى لم أفاجأ لو اختار باراك وزيراً للدفاع .. واختار بيريز وزيراً للخارجية .. فهم فى النهاية ينتمون إلى مؤسسة واحدة .. هى المؤسسة العسكرية .. هم فى النهاية جنرالات .. ولا أتصور أن التصويت على شارون هو تصويت على الحرب .. والتصويت على باراك هو تصويت على السلام .. إن الانتخابات الإسرائيلية لعبة داخلية يصعب فهمها من الخارج .. وهو ما يجعلنى أستغرب من التحليلات المتعجلة التى تتعامل مع طرفى الانتخابات على طريقة مباريات كرة القدم .. الانتخابات الإسرائيلية ليست أهلى وزمالك .

وسأله هيكل عن موقف عرب إسرائيل: لمن يصوتون؟.. قال محمود درويش: لن يصوتوا لأحد .. سيتركون ورقة التصويت بيضاء نوعاً من الاحتجاج .. فقال

هيكل: فى هذه الحالة ستكون النتيجة لمصلحة شارون.. إن ترك الورقة بيضاء هو فى الحقيقة تصويت لشارون .. قال محمود درويش: نعم .. هذا صحيح .. لكن باراك أحرجهم .. ولم يترك الباب مواربا لهم .. فقال هيكل: إننا فى كل الأحوال علينا أن ندفع ثمن فشل الآخرين .. دفعنا ثمن فشل شامير وبيريز ونيتانياهو وباراك.. وأرجو أن يكون قد تبقى فى جيوبنا ما ندفعه تسديداً لفاتورة فشل شارون.

وسألت محمود درويش: ما هى فى تصورك العقدة النفسية التى تحكم إسرائيل؟.. هل هى صحيح عقدة الأمن؟.. أم أنها عقدة «شيلوك» الذى أصر على قطع كيلو من لحم الشخص الذى لم يستطع أن يوفى له دينه؟.

قال: أبداً .. لا عقدة الأمن .. ولا عقدة شيلوك .. وإنما عقدة أن تكون لهم دولة يهودية .. إنهم يحلمون بدولة خالصة لهم .. وهو ما لم يحدث من قبل .. وما لن يحدث من بعد .. فلا يمكن أن تكون هناك دولة كل شعبها يهود .. وقد عبروا عن هذه العقدة عندما سأل مراسل القناة التليفزيونية الإسرائيلية الثانية الرئيس حسنى مبارك أخيراً عن رأيه فى وجود دولة يهودية؟.. إنهم يستمدون شرعيتهم من التاريخ القديم .. والشرعية التاريخية لا تكفى فى أمور أبسط كثيراً من وجود وقيام دولة .

قال هيكل: إنه لاحظ أن هناك تياراً متزايداً بين عرب إسرائيل فى الداخل لفكرة وجود دولة متعددة القوميات وهى الفكرة التى لم يعترض عليها عزمى بشارة ـ الذى زار هيكل أخيراً ـ وتحمس لها أخيراً إدوارد سعيد المثقف الفلسطينى البارز الذى يعيش فى نيويورك .

جاءت فناجين القهوة .. فنجانان ونصف فنجان .. فنجان «سادة» لى.. وفنجان «مضبوط» لمحمود درويش .. ونصف فنجان على «الريحة» لهيكل .. فهو يفعل كل شئ بحساب .. وكنت الوحيد الذى بحث عن «طفاية» للسجائر .. فقد كف هيكل

عن تدخين السيجار منذ نحو سبع سنوات .. كان مسافراً هو وزوجته إلى لندن وفى مطار القاهرة اتفقا على أن يمتنعا عن التدخين .. هو عن السيجار .. وهى عن السيجارة .. ولم ينقضا الاتفاق .. وكف محمود درويش عن التدخين بعد أن وجد قلبه مفتوحاً أمامه على الشاشة ومشارط الجراحين تحاول تسليك الشرايين التى سدها النيكوتين .. أما أنا فأشعر بالندم بعد كل سيجارة أشعلها .. والندم هو أول الطريق إلى التوبة الخالصة .

هل غيرت رائحة القهوة موضوع الدردشة ؟.. أم أن هموم الأمة العربية المتداخلة والمتشابكة ـ مثل خيوط كرة صوف عبثت بها قطة ـ لا تحتاج إلى مقدمات ولا قهوة حتى نتورط فيها ؟.. لقد وجدنا أنفسنا نتحدث عما أسفرت عنه محاكمة قضية «لوكيربى» .. أدين متهم .. وخرج الآخر براءة .. وبدا أن الولايات المتحدة الأمريكية خدعت ليبيا لتسلم الرجلين ولكنها لم ترفع عنها العقوبات .. بل بدا أن لوكيربى التى وضعت ليبيا تحت الحصار كل هذه السنوات ستكون الذريعة لوضع سوريا تحت الحصار .. فقد تحدث ممثل أسر الضحايا ـ الذى فقد ابنته فى انفجار الطائرة ـ إلى شبكات الأخبار العالمية مؤكداً براءة ليبيا، ومشيراً إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التى تستضيفها دمشق .. مؤكداً أن أسلوب التفجير هو أسلوبها .

إنها متعة عقلية أن تكون طرفاً ولو بالاستماع بين شاعر حساس مثل محمود درويش وكاتب مراقب مثل محمد حسنين هيكل .. ولو كنت قد شاركت فى هذا اللقاء بالمصادفة فإنه قد سبق أن شاركت فى تدبير لقاء مشابه ولكن بين محمد حسنين هيكل ونجيب محفوظ .. إن «الجورنالجى» والروائى لم يكونا قد التقيا منذ سنوات طوال ربما تزيد على السنوات العشرين .. وقد راحا يتحاوران ويتجاذبان أطراف الحوار من طرفيه البعيد والقريب .. القديم والحديث .. تحدثا يومها عن جمال عبد الناصر .. والإبداع .. والأهرام .. وبيل كلينتون .. ومونيكا .. والفرق بين أسلوب الأدب وأسلوب الصحافة .. وبخل توفيق الحكيم ومتاعبه الخاصة مع

ابنه .. ومعارك الكتاب التى لم تعد تؤخذ بصدر رحب كما كانت من قبل .. وموضة المحاكم التى انتشرت بين الصحفيين .. والسجون التى عرفوا الطريق إليها .

إن حوار السياسة والشعر - أو حوار الصحافة والرواية - هو نوع من التخصيب بين جنسيات الكتابة بأشكالها المختلفة .. وهو تخصيب يوجد أجيالاً جديدة من حملة جنسية دولة الكتابة يتمتعون بعمق التحليل وأناقة الأسلوب .. وهو ما يندر أن نجده .. وقبل ذلك فإن الحوار مهما تكن أطرافه يزيل أوجاع أشهر أمراض المثقفين والسياسيين النفسية والإبداعية ، وهو مرض الوسواس القهرى .. حيث يتصورون أشياء فى عقولهم لا وجود لها فى الواقع .

لقد تذكرت - وأنا أترك الشاعر والصحفى ليتحدثا بعيداً عن فضولى - ما قاله الشاعر فى آخر ديوان له .. «جدارية» .. فى جنوح الشعر نحو النثر .. وجنوح النثر نحو الشعر .. سنحصل على الحقيقة الجميلة التى نحلم بها .

١٥ المرأة هى الوجه الآخر للوطن

كانت لندن غارقة فى ضبابها المزمن الشهير .. تستجدى شعاع شمس أو خيطاً رفيعاً من الضوء يحطم الإحساس بالحبس فى صندوق من الرصاص الرمادى الذى سيطر علينا - نزار قبانى وأنا - ونحن نتناول طعام الغداء فى مطعم صغير .. ذات يوم من أيام صيف ١٩٩٧ .. آخر صيف فى عمر نزار قبانى .. وآخر مرة التقينا .. فبعد شهور قليلة.. وفى الربيع التالى رحل .. فى الربيع ولد .. وفى الربيع ابتسم للدنيا ابتسامة أخيرة .. ثم غادرها .. كنا نتحدث عن شهوة الكتابة الجامحة وهل يمكن أن ينتهى نهمنا اليها .. وهل يمكن أن نجبر على رجيم فى الكتابة من النوع القاسى وكل ما حولنا يدفع للترهل والسمنة السياسية ؟

وكان أن أبدى دهشته من الأفكار الخاطئة عنه والتى تسيطر على العقلية العربية ولا تغادرها مهما كشف الضوء القوى ما فيها من ظلام.

ولم أشعر بأهمية ما قاله إلا بعد رحيله .. فهناك إصرار على أنه قد دخل مخدع المرأة ولم يخرج منه حتى الآن .. وليست المرأة تهمة حتى يتبرأ أحد منها .. ولكن.. التهمة هى الإصرار على الخطأ والمتهم على قيد الحياة أو على قيد الموت ..

فبعد عام من رحيل نزار قبانى لايزال الذين يتذكرونه والذين يكتبون عنه يكتفون بمعاركه من أجل المرأة وينسون ويتجاهلون معاركه من أجل الوطن .. لايزال يتذكرون أنه شاعر العشق والحنين .. لا شاعر يكتب عن الوطن ويقاتل من أجله بالسكين .

لقد خرج نزارقبانى من «مخدع» المرأة كثيراً إلى «خداع» السياسة والهزيمة والهرولة إلى إسرائيل .. بل أنه عندما خرج آخر مرة من مخدع المرأة ليتساءل «متى يعلنون وفاة العرب» ـ وهو عنوان قصيدته الشهيرة التى فتحت عليه النيران فى آخر سنوات عمره من المحيط إلى الخليج ـ لم يتح له أن يعود مرة أخرى إليه .. ومات وهو يحمل سيف المحارب بينما كان عقد الفل الذى يغرى به النساء ملقى على الأرض .

إن كل كتائب النقد الرسمى كانت تطلق عليه النيران والقنابل المسيلة للدموع وغاز الأعصاب المحرم دولياً لمجرد أنه حاول فى قصائده الأخيرة رسم صورة لبلاد العرب .. فيها برلمان من الياسمين .. ولا يتجول فيها العساكر فوق الجبين .. وتكون محررة من كل العقد .. ويكون سرير المواطن فيها ثابت .. ورأسه فيها ثابت .. و «لكنهم أخذوا علبة الرسم منى ولم يسمحوا لى بتصوير الوطن» .

لقد حاول نزار قبانى أن يمسك بشعره المستحيل ويزرع النخيل .. «ولكنهم فى بلادى يقصون شعر النخيل» .. ويحاول أن يجعل الخيل أعلى صهيلاً .. «ولكنهم فى بلادى يحتقرون الصهيل» .. أنه وقبل الرحيل عن الدنيا آفاق من هشاشة حلمه «فلا قمر فى سماء أريحا .. ولا سمك فى مياه الفرات .. ولا قهوة فى عدن» .. فالعرب «يرعدون ولا يمطرون .. يدخلون الحروب ولا يخرجون .. يمضغون جلود البلاغة مضغاً ولا يهضمون» .

وأتذكر أنه فى ذلك العشاء الأخير فى لندن أبدى دهشته من أن الشيخ يوسف

القرضاوى أشاد بقصيدة «المهرولون» ـ التى أثارت غضب المهرولين إلى إسرائيل ـ فوق منبر مسجد «عمر بن الخطاب» ـ الذى هو إمامه ـ فى الدوحة التى كانت فى ذلك الوقت إحدى عواصم المهرولين .. وكان الشيخ مصرى الجنسية قطرى الموطن قد قال: أنه يختلف مع شعر نزار قبانى الحسى .. الغزلى .. الذى يتفنن فيه فى ابراز مفاتن المرأة .. ولكنه يوافق على شعره السياسى .. ويعجب به .. ويعتبره محل تقدير .. وجاء تعليق الشيخ بعد أن ألقى من على منبر المسجد أبياتاً من هذه القصيدة التى حركت ضمير هذه الأمة وساهمت فى فرملة الانزلاق إلى هاوية التطبيع .

كان سر دهشة نزار هو أن واحداً من كتيبة كاملة من الشيوخ ـ ظلت تهاجمه على مدى نصف قرن ـ يعترف به مؤخراً .. فقد كان شعره بالنسبة لأفراد هذه الكتيبة .. القبيلة رجساً من عمل الشيطان .. وجريمة من جرائم الآداب .. وقولاً فاضحاً فى الطريق العام .. يستحق صاحبه الرجم والردم .. وكان فى سر هذه الدهشة أيضاً .. أن الذين منحوه وسام المجد السياسى حرموه من وسام المجد العاطفى .. وفى الوقت نفسه حدث العكس مع الآخرين .. وكأن الذى يكتب عن الحب محرم عليه أن يكتب عن الوطن .. والذى يكتب عن الوطن من العار أن يكتب عن الحب .. لا أحد أعطاه الرغيف كاملاً .. لا أحد تصور أن شعره كان قمراً مستديراً .. دائماً كان هناك نصف ضوء ونصف سواد .

ولعل ذلك هو ما جعله يكرر: «أن البعض يرى وجهى من جانبه المضئ فيستريح إليه .. والبعض الآخر يرى وجهى من جانبه المعتم فيخاف منه .. ويؤلمنى الشعور بأنه لا يزال هناك من يقرأونى خطأ .. أو من يفهموننى خطأ .. أو من يذبحوننى خطأ .. ولو كنت لا أطمح أن تصبح صورتى «موحدة» كصور الحكام المعلقة فى دواوين الحكومة والمرسومة على طوابع البريد .. فإن كل ما أطالب به أن لا تتعرض صورتى كشاعر لسوء الفهم والتشويه المتعمد» .. هذا ما كان يطالب به الشاعر

الأكثر انتشاراً والأعظم حزناً فى العالم العربى .. وهى رغبة تحولت بعد رحيله إلى وصية .. لكن .. لا أحد نفذ الوصية حتى الذين أحبوه وتذكروه فى يوم رحيله .. فبعضهم حاول أن يمجده على طريقة الدبة التى قتلت صاحبها لتنقذه من ذبابة .

ولا جدال أن متاعبه لم تبدأ إلا بعد أن تغير لون الحبر الذى يكتب به قصائده .. من لون الورق الأخضر الذى يكتب به أبياته العاطفية الناعمة .. إلى لون الدم الأحمر الذى يكتب به أبياته الوطنية المتفجرة .. وقد كانت قصيدته المزروعة بالخناجر والساكين «هوامش على دفتر النكسة» هى بداية مشوار الشوك الذى مشى عليه .. كانت البيان الذى ضمنه احتجاجه ومعارضته .. وقد كتبه فى مناخ المرض والهذيان وفقدان الرقابة على أصابعه .. «لذلك جاءت بشكل شحنات متقطعة وصدمات كهربائية متلاحقة تشبه صدمات التيار العالى» .. وتؤكد أن كل الأشياء المادية .. المكسورة قابلة للتعويض .. وأنه «وحدها النفس المكسورة هى التى لا يمكن جبرها أو لصقها .. ووحده القلب الذى لا يمكن ترقيعه» .

فى ذلك الوقت كنت على عتبة الجامعة .. وكنت مثلى مثل ملايين الشباب الذين ضربوا لهم موعداً مع القدر وعندما ذهبت فى الموعد وجدت الوطن فى أجازة .. ووجدت بدلاً منه فى انتظارى مندوباً عن جيش الدفاع الإسرائيلى .. فرحنا ننسخ القصيدة التى كانت تتناسل كما تتناسل الأرانب والتى كان من يحملها كمن يحمل منشوراً معادياً لنظام الحكم .. وكانت حرزاً من أحراز قضايا أمن الدولة فى ذلك الوقت .. ومن ثم كان لابد من مصادرتها ومصادرة صاحبه .. وأكثر من ذلك لابد أن تخرج كتيبة النقد الرسمية لتشويه صورته .. وكان أن قيل أن هذا الشاعر الذى وهب روحه للشيطان والمرأة وللغزل الفاحش لا حق له أن «ينجس» بشعره الوطن حتى لو كان مذبوحاً .. وقيل أنه هو المسئول الأول عن الهزيمة .. فما نشره من شعر منحل أنتج جيلاً أكثر انحلالاً .. وقيل أنه يركب موجة الوطنية .. وأن ولادته الثورية بعد الهزيمة هى ولادة غير طبيعية .. وفيما بعد .. وبدون

أسماء.. كان الذين هاجموه هم الذين شرحوا جمال عبد الناصر بسبب الهزيمة ولكن بعد أن مات .

ولعلى أكشف سراً لو قلت أن الناشر الذكى الحاج محمد مدبولى أرسل إلى نزار قبانى من يقول له: لا تترك أحد يحرق الجسور بينك وبين جمال عبد الناصر .. أكتب إليه شارحاً دوافعك النبيلة فى كتابة القصيدة .. فهو زعيم قوى .. لا يرتعش من قصيدة .. ولا يخاف من غضب الشعراء .. وقد سمعت هذه القصة من طرفيها .. محمد مدبولى ونزار قبانى .. وبالفعل أرسل نزار قبانى رسالته الشهيرة إلى جمال عبد الناصر .. والتى قال فيها: «وإذا كانت صرختى حادة وجارحة .. فلأن الصرخة تكون بحجم الطعنة والنزيف يكون بمساحة الجرح» .. «لم يكن من بإمكانى وبلادى تحترق الوقوف على الحياد فحياد الأدب موت له» .. «فالذى يحب أمته يا سيادة الرئيس يطهر جرحها بالكحول ويكون - إذا لزم الأمر - المناطق المصابة بالنار» .. ولم يطل صمت جمال عبد الناصر .. فقد أشر على الرسالة بأنه لم يقرأ القصيدة إلا عندما أرسلها إليه نزار قبانى .. وسمح بتداولها .. وفتح أبواب مصر لشاعرها .. وهو ما يعنى أن رجال الحاكم هم فى الغالب أكثر تزمتاً وتشدداً منه .. وأقل حرية منه .. وأنه فى كثير من الأحيان هو آخر من يعلم .. وأول من يدفع الثمن .

وتكرر الهجوم بنفس الأخطاء بعد زيارة الرئيس أنور السادات لإسرائيل.. وهجوم نزار قبانى عليها .. وكان فى ذلك الوقت قد عرف طريقه إلى النثر .. فمنعت مقالاته .. وصودرت المجلات التى تنشرها .. وعاد التشويه المتعمد يطل من حناجر وخناجر الذين وحدوا بين السادات ومصر واعتبروهما ذمة وطنية واحدة .. مرة أخرى كان التشكيك فى وطنيته محاصراً بقصائده الوردية عن النساء .. وكأنهم قد وضعوه إلى الأبد فى زجاجة الحب وختموها بالشمع الأحمر .. ومرة أخرى كان عليه أن يزيل الطين الذى ألقوه على وجهه بنفسه .. وراح ينفخ فى قربة ممزقة

ويقول: «إن كتابتى عن المرأة لا تعنى بشكل من الأشكال أننى وقعت معاهدة أبدية مع جسدها .. فالحب عندى عناق للكون .. وعناق للإنسان .. والوطن قد يصبح فى مرحلة من المراحل عشيقة أجمل من كل العشيقات وأغلى من كل العشيقات».

وقد عاد نزار قبانى إلى مصر بعد رحيل السادات وكتب أجمل الجمل عنها .. كتب: «إن مصر هى حب كبير .. وامرأة استثنائية .. يصبح أمامها المنطق عاطلاً عن العمل .. وتصبح الحسابات كلها خطأ.. وتختل كل المعادلات .. ويصبح العشق مولانا وسيدنا» .. وكتب: «إننى فى مصر أشعر أنها تغطينى بشعرها الطويل .. فأتحول إلى غمامة يانسون وقرفة فى سوق العطارين .. وأصبح جملة موسيقية فى فم سيد درويش».. وكتب: «كلما وضعت رأسى على كتف مصر أشعر أن وطناً جديداً يتشكل.. ليس لى عند مصر مطالب مستحيلة .. كل ما أرجوه منها .. أن تكون وطنى» .. وكتب: «علاقتى مع مصر مثل القضاء والقدر لا يمكن لأحد أن يغيرها أو يشوهها، وأنا فى كتاباتى أفرق بين الأنظمة والشعوب .. فالأنظمة قابلة للنقاش والجدل .. أما الشعوب فهى متجذرة فى الأرض وثابتة فى الزمان والمكان».

وتكرر الهجوم بنفس التكتيك ونوع السلاح ومسافة إطلاق الرصاص فى منطقة الخليج بعد كل قصيدة كان يحاكم فيها نزار قبانى النفط الذى يعتبره مثل ذئب هجم على الأمة العربية .. فى كل مرة كان يغسل يديه من النفط كان أصحابه هناك يعايرونه بما كتبه عن النساء.. ويتهمونه بارتكاب جرائم العشق .. وهى جرائم كثيراً ما قال نزار قبانى أنه لا يشعر بالتكفير عنها .. لأنها جرائم وهمية .. وأنه غير مستعد لشطب تاريخه الشعرى غير الوطنى .. وغير مستعد أن يضرم النار فى كتبه ودفاتره وأثاث بيته والاعتذار عن كلام خزن فيه عواطف جيل كامل من أبناء وبنات هذا الوطن الكبير .. ثم أنه «لست أنا الذى أخترع الحب حتى أعدم بسببه ولست أنا الذى أدار النهد حتى أصلب على رخامه ولست أنا الذى ضفر ضفائر

النساء حتى أشنق بها .. كل هذه الأشياء كانت موجودة قبل ولادتى فاذا كتبت عنها لأنها حقيقة كأهرامات مصر وأعمدة بعلبك» .

والحقيقة البعيدة عن كل خيال أن ما كتبه نزار قبانى عن النساء والعشق والغرام هو برئ منه .. فقد كان ينام غالباً بعد العشاء .. وينهض مع أذان الفجر .. لا ليالى حمراء .. ولا صفراء .. ولا زرقاء كما تقول ابنته هدباء .. والذين تعاملوا معه على أنه بطل كل قصائده .. وأن شعره هو إنعكاساً لتجاربه قد تجنوا عليه .. ثم أنهم يخلطون بين المبدع وشخصياته .. وهو خطأ وإلا كان من يمثل دور هتلر على المسرح هو سفاح وقاتل بالجملة فى الواقع .. وأن من تمثل دور غادة الكاميليا لابد أن تكون قد عاشت فى ماخور أو كباريه .. والذين يأخذون على نزار قبانى جرأته فى تناول موضوع الجنس يتناسون أن التراث العربى لم يحرم الكتابة فى هذا الموضوع .. وكتاب ألف ليلة وليلة وكتاب طوق الحمامة وكتاب الروض العطر هى كتب تعيد طبعها معظم دور النشر الرسمية وقد لا يوجد بيت عربى واحد لا يحتفظ بنسخة منها .

ولكن .. مهما أخذنا على نزار قبانى .. فليس لنا الحق فى أن نعامله كنصف رغيف .. أو كنصف قمر .. أو كنصف شاعر .. نمنحه البركة فى النصف الذى يعجبنا فى شعره العاطفى والوطنى .. ونلعنه على النصف الآخر .. فمقاييس الشعر والفن والإبداع غير مقاييس تنقية الطماطم والبطاطس .

١٦ عزف منفرد فى بيت نزار قبانى

كانت طائرتى تستعد لخرق السماء فى طريقها إلى القاهرة بينما كان نزار قبانى يهبط فى مطار دمشق وحيداً، مجمداً، ملفوفاً بالصمت الأبدى، عائداً إلى «صدر أمه».

أخيراً تحقق حلمه القديم وأصبح جزءاً من تاريخ دمشق .. «قطعة فسيفساء على جدران الجامع الأموى» .. خاتماً مشغولاً بالفيروز فى أسواقها القديمة .. عريشة ياسمين تلد كل صيف ألف عاشق .. وألف شاعر .. وألف متمرد على الواقع يجمع بين الضراوة والحلاوة.

قبل أسبوع سألته عبر الهاتف: هل تريد شيئاً من دمشق .. إننى مسافر إليها قبل أن تحترق بالصيف؟

قال: اذهب إلى بيتى فى «مئذنة الشحم» واقطف عقداً من الياسمين واشرب كوباً من اليانسون لتعرف لماذا ظل حبل مشيمتى مشدوداً إلى رحم دمشق منذ ولدْت .. «إنها معجزة طبية أن يبقى طفل من الأطفال يبحث عن ثدى أمه خمسة وسبعين عاماً» .

يوم وفاته، نفذت وصيته .. اخترقت دمشق القديمة التى راحت شوارعها الضيقة تلتف كالأساور الذهبية .. وبدا الجامع الأموى شامخاً بقبابه ومآذنه .. وتألق قصر «العظم» برخامه وبركته الزرقاء «وأبوابه وسقوفه الخشبية التى تركت الأصابع عليها ثروة من النقوش والآيات القرآنية لم يعرف تاريخ الخشب أروع منها» .. وعلى باب «جابى» وقف جامع «إسلام باشا» صامتاً .. إنه المسجد الذى صلوا فيه على جثمان نزار قبانى .. فهو أقرب المساجد إلى منطقة باب صغير حيث مدافن أسرته .. وأقرب الأماكن إلى بيته .. إن الموت والميلاد يلتقيان فى بقعة واحدة .. فى لحظة واحدة .

الطريق إلى بيته يمر بأسواق مسقوفة .. الحميدية .. الصاغة .. العطارين .. الخياطين .. انه طريق مغرق «فى شاميته» .. تختلط فيه رائحة التوابل برائحة النساء .. ويتجول على جدرانه الخط الكوفى وهو يتأبط «أزهاراً جميلة من كلام الله» .. وتسمع بعينك صوت الفسيفساء و «موسيقى مسابح العقيق» .. وتأخذك «حالة من التجلى والانجذاب» .. وتشعر بالوجد والانخطاف .. إن الطريق الذى ينتهى عند «باب شرق» هو نوع من العزف المنفرد .. مرة على أعطاف التاريخ .. وألف مرة على أعصاب القلب .. لكننى لم أكمل الطريق حتى نهايته .. فقد انحرفت يميناً إلى «مئذنة الشحم» .. ومنها إلى زقاق «نصيف باشا» .. حيث البيت رقم ٣٥ .. بيت نزار قبانى .

البيت لم يعد لعائلة قبانى .. باعوه لعائلة نظام .. وهى عائلة لها جذور ضاربة فى الحى لها بيت أثرى تحول إلى مزار سياحى على بعد خطوات من بيت نزار الذى اشتروه فى عام ١٩٦٨ .

الباب الخشبى المتواضع والمدهون بألوان بنية باهتة لا يوحى بأنه بوابة دخول إلى الجنة .. لقد فتحه لنا ساكنه رياض نظام فوجدنا أنفسنا فى عالم آخر .. رطب ..

ملون .. مختلف تماماً عن خارجه .. وفى ثانية واحدة عرفت لماذا قال نزار قبانى إنه ولد فى «قارورة عطر» .. وكان على حق عندما أضاف «إننى لا أحاول رشوتكم بتشبيه بليغ ولكن ثقوا أننى بهذا التشبيه لا أظلم قارورة العطر .. وإنما أظلم دارنا» .

«بوابة صغيرة من الخشب تنفتح ويبدأ الاسراء على الأخضر والأحمر والأصفر .. وتبدأ سيمفونية الضوء والظل والرخام» .

بعد ثلاث خطوات نصطدم بنافورة «البركة الوسطى» حيث الأسود المحفورة من الرخام «تملأ فمها بالماء وتنفخه .. وتستمر اللعبة المائية ليلاً ونهاراً» دون ملل أو تعب أكثر من قرنين من الزمن .. عمر البيت المكون من طابق من الحجر يعلوه طابق من الطين .. مثله مثل كل بيوت دمشق القديمة التى تحتاج لرعاية خاصة وإلا انتحرت من الإهمال.

مكان النافورة يسمى «أرض الدار» وهو مفتوح على السماء ومحاصر بالخضرة والزهور من جميع الجهات .. على اليسار شجرة يارنج «تحتضن ثمارها» .. وعلى اليمين شجرة ياسمين «ولدت ألف قمر أبيض وعلقتها على قضبان النوافذ» .. وفى الواجهة نباتات متسلقة تصنع قوساً من الأوراق الخضراء .. و «الورد البلدى سجاد أحمر ممدود» تحت الأقدام .. والريحان .. والنعناع .. وليمون الأضاليا .. مئات النباتات الدمشقية الأخرى يقول نزار إنه لا يتذكر ألوانها ولا يتذكر أسماءها كانت تتسلق على أصابعه كلما أراد أن يكتب.

ولابد أنه كان يعشقها وكان يحولها إلى حروف وكلمات .. فقد ولد فى ٢١ مارس ١٩٢٣ فى «الفصل الذى تثور فيه الأرض على نفسها وترمى فيه الأشجار كل أثوابها القديمة» .. فى الفصل الذى «تنفذ فيه الطبيعة انقلابها على الشتاء .. وتطلب من الحقول والحشائش والأزهار والعصافير أن تؤيدها فى انقلابها على روتين الأرض» .

فى نطاق «هذا الحزام الأخضر» ولد نزار ونطق كلماته الأولى وأمسك بالقطط من ذيلها .. «كان اصطدامى بالجمال قدراً يومياً» .. واستحوذ هذا البيت الدمشقى الجميل على كل مشاعره .. «وأفقدنى شهية الخروج إلى الزقاق» .. ومن هنا نشأ عنده الحس بالبيت الذى رافقه فى كل مراحل حياته .. لقد ظل يشعر «بنوع من الاكتفاء الذاتى» جعل «التسكع على أرصفة الشوارع واصطياد الذباب فى المقاهى عملاً ترفضه طبيعته» .

فى حجرة فى الدور العلوى ولد نزار .. لقد تغيرت الحجرة تماماً.. فيها نيون وتليفزيون .. وحمام بالسيفون .. وإن بقيت السجادة الفارسية التى كان يذاكر عليها دروسه، ويكتب فروضه، ويحفظ قصائد عمرو بن كلثوم، والنابغة الذبيانى، وطرفة بن العبد .

كان هذا البيت هو نهاية حدود العالم عنده .. «كان الصديق، والواحة، والمشتى، والمصيف» .. وكان يستطيع حتى آخر لحظة فى عمره أن يغمض عينيه ويعد «مسامير أبوابه» ويستعيد «آيات القرآن المحفورة على خشبة قاعاته .. «أستطيع الآن أن أعد بلاطاته واحدة، واحدة .. وأسماك بركته واحدة، واحدة .. وسلالمه الرخامية درجة، درجة .. أستطيع أن أغمض عينى وأستعيد مجلس أبى فى صحن الدار وأمامه فنجان قهوته، وعلبة تبغه، وجريدته .. وعلى صفحات الجريدة تتساقط كل خمس دقائق زهرة ياسمين بيضاء كأنها رسالة حب قادمة من السماء» .

إن صحن الدار فى المواجهة على شكل نصف قوس .. تصعد إليه درجة لتجد أرضية من الرخام الأبيض تتقاطع عليه خيوط سميكة من الرخام الأسود .. وعلى الحائط مرآة وسيوف ذهبية، ودروع قديمة، وساعة حائط، وصور للرئيس حافظ الأسد، ولأئمة الشيعة، ورسم قيل أنه لعلى بن أبى طالب، كرم الله وجهه .. وعلى الحائط أيضاً حروف وكلمات من الجبس الملون .. فيها إشارة إلى صاحب البيت

«عباس نظام» .. وأقوال مأثورة عند الشيعة مثل «لافتى إلا علـى ولا سيف إلا ذو الفقار» .. وذو الفقار هو اسم السيف المشقوق الذى كان يستعمله على بن أبى طالب.

فى هذه الباحة الشرقية الفسيحة كان يتجمع زعماء السياسة السورية يخطبون فى الناس «مطالبين بمقاومة الاحتلال الفرنسى، ومحرضين الشعب على الثورة من أجل الحرية» .

كان نزار يستمع إليهم «بشغف طفولى غامر» .. وفيما بعد قال: كانت الاجتماعات السياسية تعقد فى بيتنا ضمن أبواب مغلقة، وتوضع خطط الإضرابات والمظاهرات ووسائل المقاومة وكنا من وراء الأبواب نسترق الهمسات ولا نكاد نفهم منها شيئاً .

«ولم تكن مخيلتى الصغيرة فى تلك الأعوام من الثلاثينيات على وعى الأشياء بوضوح ولكننى حين رأيت عساكر السنغال يدخلون فى ساعات الفجر الأولى منزلنا بالبنادق والحراب ويأخذون أبى معهم فى سيارة مصفحة إلى معتقل «تدمر» الصحراوى، عرفت أن أبى (توفيق قبانى) كان يمتهن عملاً آخر غير صناعة الحلوى .. كان يمتهن صناعة الحرية» .

إن «قارورة العطر» التى ولد فيها نزار جعلت شعره قطرات ندى على أوراق شجر .. ومشهد القبض على أبيه جعله ينحاز للحرية .. والسياسة التى رضعها فى بيته جعلته متمرداً على القهر والقبح والظلام والكلاب البوليسية .. وأخته الوحيدة هيفاء التى استشهدت فى سبيل الحب جعلته مقاتلاً شرساً فى دفاعه عن المرأة وجعلته «المتحدث الرسمى» باسم الحب .

لقد رفضت التقاليد الصارمة الاستسلام لمشيئة قلب هيفاء وزواجها ممن تحب فكان أن وجدوها منتحرة تاركة وصية لأشقائها المعتز ورشيد وصباح بأن يزرعوا بجسدها شجرة يروونها بآخر أنفاسها ويدفنون تحتها الحب الذى كان .

وفى الدار شجرة أخرى كبيرة، كبيرة تعبر عن تمرد من نوع آخر، علمت نزار درساً مختلفاً .. الشجرة اسمها أبو خليل قبانى .. على اسم عم والدة نزار وشقيق جد والده .

هذا الرجل «هز مملكة الباب العالى، وهز مفاصل الدولة العثمانية فى أواخر القرن التاسع عشر» .. ويستطرد نزار .. إن هذا الرجل كان أعجوبة .. «تصوروا إنساناً أراد أن يحول حانات دمشق التى كانت تبيت فيها الدواب إلى مسارح، ويجعل من دمشق المحافظة «برودواى» ثانية .. خطيرة كانت أفكار أبى خليل .. وأخطر ما فيها أنه نفذها وصلب من أجلها» .

كان يؤلف الروايات ويخرجها ويمثلها ويصمم الأزياء ويرقص ويلحن فى وقت لم تكن دمشق تعرف فيه من الفن المسرحى سوى «القره قوز» ولا تعرف من الأبطال غير أبى زيد الهلالى .. فى ذلك الوقت كان أبو خليل يترجم لها عن الفرنسية مسرحيات «راسين» .. «وطار صواب دمشق، وأصيب مشايخها بانهيار عصبى فقاوموه بكل ما يملكون من وسائل، وسلطوا عليه الرعاع ليشتموه .. لكنه ظل صامداً، وظلت مسرحياته تعرض فى خانات دمشق ويقبل عليها الجمهور الباحث عن الفن النظيف» .

وحين يئسوا منه ومن تحطيمه ألفوا وفدا ذهب إلى الأستانة وقابل «الباب العالى» وأخبروه أن أبا خليل قبانى «يشكل خطراً على مكارم الأخلاق والدين والدولة العلية وأنه إذا لم يغلق مسرحه فسوف تطير دمشق من يد آل عثمان .. وتسقط الخلافة .. طبعاً خافت الخلافة على نفسها وصدر فرمان سلطانى بإغلاق أول مسرح طليعى عرفه الشرق، وغادر أبو خليل منزله الدمشقى إلى مصر التى كانت أكثر انفتاحاً على الفن وأكثر تفهماً لطبيعته وودعته دمشق كما تودع المدن المتحجرة موهوبيها .. بالحجارة والطماطم والبيض الفاسد» .

إن انتحار هيفاء هو أول استشهاد عاطفى فى تاريخ أسرة نزار وانقضاض الرجعية على أبى خليل هو أول استشهاد فنى فى هذا التاريخ.. وحين يتذكر نزار جراحه العاطفية وجراحه الفنية يعرف من أين بدأ عمره مع الشعر ومع الجراح .

فى هذا البيت الذى قرأت فيه الفاتحة على نزار وتلوت أبياتاً من شعره وقطفت زهرة من زهوره فهمت سر نزار وأمسكت بمفاتيحه وعرفت لماذا امتلأ شعره بالألوان والغضب والتجديد والتمرد والحلوى والحرية .. عرفت لماذا دافع عن الثورة .. ولماذا لم يعتبر الحب والمرأة عورة؟ .. لماذا انحاز إلى العشاق وطالب فى الوقت نفسه أن نتجاوز الآفاق؟ .. لماذا يكتب الكلام الذى يؤدى إلى الإعدام ؟

بعد رحلته الطويلة يجب أن نعود معه إلى هنا .. لنفهم طوافه .. وطموحه الذى أوجع الشمس .. ويده التى احترقت ـ وهى تكتب عن الخبز والوطن والحب والحشيش ـ من النجوم .. ومن ضوء القمر .

على جدران دمشق وضعوا ملصقات مطبوعة عليها النعى والعزاء وتحدد مسار جنازته من بيت شقيقة المعتز فى حى «المالكى» بعد عصر يوم الاثنين ٤ مايو ١٩٩٨ إلى مدافن الأسرة .. لكن الناس لم تنتظر الجنازة فقد ترحموا عليه وهم يتلون أشعاره .. وأحسست أننى أريد أن ألقاه فى بيته لا فى قبره .. وانتظره وهو يعود إلى الرحم الذى تشكل فيه .. وإلى الكتاب الأول الذى قرأ فيه .. وإلى المرأة الأولى التى علمته «جغرافية الحب وجغرافية النساء» .

«يعود إلى دمشق .. ممتطياً صهوة سحابة .. ممتطياً أجمل حصانين فى الدنيا .. حصان الشعر وحصان العشق» .. يعود بعد أن «تناثرت أجزاؤه فى كل القارات وتناثر سعاله فى كل الفنادق» .

يعود وهو يقول: أنا قمركم المشرد .. يا أهل الشام .. فمن رآنى منكم .. فليترحم على ..

١٧ النجـم إذا هـــوى!

كان جون كيندى أصغر رئيس امريكى دخل البيت الأبيض... لكنه لم يستمر فى الحكم سوى ألف يوم ويوم .. وقد مات قتيلاً .. وسيما .. مبتسما .. وسط حشود الجماهير .. أمام عيون الكاميرات .. على طريقة نجوم السينما فى مصانع الضوء والوهم فى استديوهات هوليوود .. فاصبح أسطورة خالدة .. يتوارثها الناس .. يصعب عليهم نسيانها.

وقد ارتبطت هذه الأسطورة السياسية بأسطورة أخرى انثوية .. فقد عرفته مارلين منرو فى حفل خيرى وهو مرشح للرئاسة .. وأحبته من أول نظرة .. وفى طائرته الخاصة اكتشفت أنه اكثر رقة مما يتصور فى نفسه.. وعلى ارتفاع ١٥ الف قدم فى الجو قال لها: «ان مهمتى فى الحياة أن أحبك .. أنا لا أشعر بأننى حاكم قوى إلا معك».

وعندما سألته عن زوجته «جاكلين» قال: «إنها موظفة فى البيت الأبيض بدرجة زوجة رئيس» وعندما قالت له: «ان زوجته تشبه أنثى الزرافة قال لها: لا أنها تشبه

ذكر الزرافة، وعندما قالت له: «ان المخابرات المركزية قد حاولت تجنيدها للعمل ضده» قال «أنا أعرف انهم جنودك بالفعل للعمل ضدى .. فانا الرئيس الأمريكى .. والرئيس الأمريكى يعرف كل شئ».

لكن الرئيس الأمريكى ـ الذى يعرف كل شئ ـ لم يعرف أنه سيقتل فى عز الظهر .. وفى عز شبابه .. وأمام عيون الدنيا .. على الهواء مباشرة .. ولم يعرف أيضا أن مارلين منرو ستجبر على الانتحار وهى فى عز أنوثتها وعز شهرتها .. ولم يعرفا معا أنهما سيدخلان سجل الخلود .. ويصبحان اسطورتين من أساطير العصر.

ولو أن جون كيندى بقى على قيد الحياة لاصبح فى أفضل الأحوال وأفضل الصور مثل بيل كلينتون .. مجرد حاكم سابق .. يتذكره الناس وينظرون اليه بعيون الشفقة وهو يتسكع وحيداً فى شوارع المدن الأمريكية الكبرى بعد أن كانوا ينظرون إليه بعيون الانبهار وهو يمرق على شاشات التليفزيون وكأنه أحد ألوان قوس قزح .. ولو مات بيل كلينتون أو قتل وهو فى عز مجده لأصبح اسطورة أخرى على طريقة جون كيندى .. إن الصورة التى يختفى عليها المشاهير هى التى تبقى فى أذهان الناس إلى أبد الآبدين.

أنها الصورة الرومانسية العذبة التى أختفى عليها عبد الحليم حافظ الموعود هو وقلبه بالعذاب .. وهى الصورة التى صنعت أسطورته .. وأبقته مطربا ونجما خالداً.. يأتى المطربون بعده ويذهبون .. وهو قائم ومستمر.. ولو بقى على قيد الحياةلربما تعرض لعوامل التعرية .. ولراحت الأسطورة تتأكل وتتلاشى قبل أن تكتمل .. وربما كان مثله مثل محرم فؤاد .. ومحمد رشدى .. وماهر العطار .. وهم مطربو جيله.

ولو بقيت مارلين منرو على قيد الحياة حتى الآن لما كانت أسطورة المرأة الجذابة الساحرة المثيرة .. التى تشارك كل نساء العالم فى أزواجهن دون أن تدرى ـ قد ولدت .. ولو كانت قد ولدت فانها لم تكن لتعيش .. ولو عاشت ما كانت ستظل بكل هذا البريق .. لقد كتب عنها مئات الكتب وملايين المقالات وعرضت حياتها على الشاشة فى عشرات الأفلام .. ولاتزال صورتها على جدران حجرات المراهقين فى البيوت والمدارس .. فقد ورثتها الأجيال المختلفة برغم تغير كل شئ .. لقد تغيرت الثياب والأفكار والأحلام ووسائل الحياة .. لكن بقيت مارلين منرو على ما هى عليه .. صورة مرسومة بخيوط الضوء .. لا يقترب منها الزمن .. ولا تغير ملامحها الأيام .. ولا تقدر صورة أخرى على سحقها.

لو بقيت مارلين منرو على قيد الحياة فأنها كانت ستعانى مما عانته بريجيت باردو وصوفيا لورين وجين فوندا وغيرهن من نجمات السينما.. كانت مارلين منرو ستشيخ وتترهل وتنتفخ وتضاعف من المساحيق والألوان وتشد جلدها أكثر من مرة حتى تتغير ملامحها وتنفجر مسامها.. لم يكن أمامها للحفاظ على ما تبقى من الشهرة إلا الخروج فى مظاهرات للدفاع عن الحيوانات البرية مثل بريجيت باردو.. أو الانضمام للجمعيات التى تعالج النساء المغتصبات مثل جين فوندا .. أو قتل الوقت الممل بعلب «البوكر» مع أبعاد الأنظار عما جرى فى ملامح الوجه إلى مناطق أخرى مثل صوفيا لورين.

وليس معنى ذلك أن على النجم اللامع أن ينتحر أو يموت مبكراً حتى يصبح أسطورة .. فهذا غير معقول وغير معقول .. ولكن معناه أن يختار اللحظة المناسبة التى يختفى فيها ويختار الصورة المناسبة التى يختفى عليها .. وهى مقدرة وحكمة

لا يقدر عليها غالبية المشاهير .. فهى فى حاجة إلى إرادة قوية .. وقدرة فائقة على الانسحاب دون هزيمة بالضربة القاضية .. فالضوء أعلى درجات الأدمان والأنسحاب منه عمليه نفسية شاقة لا يقدر عليها البشر فى معظم الأحيان .. فليس مهما أن تصل إلى القمة ... وإنما أن تحافظ عليها ... أو تتركها بكامل مشيئتك بدلا من أن تجبر على السقوط من فوقها إلى القاع ... محطما... مهشما ... مبعثراً.

لقد عرفت ليلى مراد كيف تنسحب من الضوء فى الوقت المناسب... تركت لنا صورتها الحلوة الرشيقة الوديعة على باب شقتها التى أختفت وراء أبوابها وجدرانها .. لا تستقبل فيها إلا أقرب الناس إليها .. وعندما رحلت عن الدنيا تصورنا أنها رحلت على نفس الصورة التى نراها فى أفلامها .. صورتها وهى تجلس على صخرة فى وسط البحر وتغنى «ياساكنى مطروح .. جنية فى بحركم.. والناس تيجى وتروح وأنا عاشقة حيكم» .. وتصورنا أنها رحلت وهى تتمتع بنفس الصوت العذب التى نحتفظ به فى آذاننا .. لا تخيلنا تجاعيد الزمن تسيطر عليها .. ولا تصورنا أن البدانة عرفت طريقها إليها .. منتهى الذكاء.

وعرفت نادية لطفى كيف تختار التحول ـ بطريقة لائقة وذكية ـ من التمثيل إلى القضايا العامة .. انتقلت من مناقشة متاعب المجتمع على الشاشة إلى مناقشة هذه المتاعب على أرض الواقع .. وتركت الضوء المبهر فى السينما إلى البحث وراء قضية الأسرى المصريين الذين دفنتهم اسرائيل أحياء فى حروبنا معها .. وغيرها من القضايا الحيوية التى جعلتها تواصل حوارها الجذاب مع ما حولها.

وظلت هند رستم برأسها بعد أن اعتزلت .. لكنها عادت مسرعة للأختفاء .. فبقيت صورتها فى عيوننا على ذلك النحو الجذاب الذى تركته لنا فى أفلامها ..

وهى فنانة لن تتكرر .. تعرف أن الخلود فى الأعمال الفنية .. وليست فى التصريحات الصحفية والصور الإجتماعية .. وقد أسعدها أن تكون زوجة طبيب مشهور وأسعدها أكثر أن تدفعه إلى مزيد من الشهرة .. فهى قد شبعت من الشهرة ولديها رصيد ضخم منها يكفى مئات الأشخاص.

أما فاتن حمامة فقد كان ذكاؤها مثيراً للأعجاب .. فهى تعرف كيف تعيد تقديم نفسها إلى الناس فى كل مرحلة من مراحل حياتها النفية .. فالفتاة اليتيمة المسكينة فى بداية مشوارها الفنى ليست المرأة الناضجة التى تدافع عن حقوق النساء وتريد الحلول لمشاكلهن وتعرف كيف تدير امبراطورية من الأولاد والبنات والمشاكل التى لم يواجهها جيلها .. ثم كيف تكون «أبلة» تتسم بالذكاء والحكمة فى مدرسة تواجه مجتمعاً جديداً اختلطت فيه القيم والمعايير .. أنها فنانة تعرف كيف تختار أعمالها بدقة .. تعرف متى تبتعد ومتى تقف أمام الكاميرا؟ .. تعرف متى تتكلم ومتى تصمت ؟ وقد أسعدنى أن يكرمها اللبنانيون تكريم الرؤساء والزعماء .. وأسعدها أن تعيش بعض ذكرياتها الفنية فى أفلامها .. أنها تتصرف بنفس الذكاء الأجتماعى والفنى المذهل الذى كانت تتمتع به أم كلثوم.

إن أم كلثوم لم تكن موهبة صوتية خارقة فقط وأنما كانت شخصية متميزة أيضاً.. فهى بجانب خفة الظل وسرعة البديهة وبراعة الأختيار الفنى والوطنى كانت قادرة على جذب الناس إليها لتعرف منهم ما يجوز وما لا يجوز ... ما يجب أن تفعل وما لا يجب .. والأهم من ذلك كله متى تغنى «أراك عصى الدمع» .. و«ياجمال يامثال الوطنية» .. ومتى تنسحب فى هدوء بعيداً دون أن تعاند الأقدار ؟

وشتان بين صورة النجمة المصرية الرمانسية الحالمة فى بداية الخمسينيات

ورموشها ترتعش من رؤية حبيبها الفقير الطموح الذى سيغير المجتمع وصورتها على هذا النحو أيضا وهى ملهوفة على حبيبها العائد بعد اجراء عملية خطيرة فى القلب وصورتها الواقعية فيما بعد .. لو الزمن توقف بها فى المرحلة البعيدة لكانت قد انضمت إلى عائلة الأساطير .. ولو كانت قد تركت الضوء فى تلك الأيام لكانت حلما دائما لا تهدده واقعية ما جرى بعد ذلك.

وربما لهذا السبب لا أميل كثيراً لرؤية اقرب الناس لى وهم على فراش الموت .. إن القدر فى تلك الساعات يضعنى فى حرج نفسى لا أقدر بسهولة على الخروج منه .. لقد صعقنى خبر اصابة الكاتب الصحفى «صلاح حافظ» – وهو غير الصديق والزميل صلاح الدين حافظ فى الأهرام – بسرطان الحنجرة .. إنه الرجل الذى علمنى فى الصحافة مليون حرف فلم أصر له عبداً وأنما صرت له صديقاً وشريكاً فى النجاح وتحدى المتاعب التى تفرضها علينا هذه المهنة .. رحت أتابعه فى رحلة النهاية خطوة .. خطوة .. وقد أدهشنى أنه كان يشرح لنا – وهو طالب الطب السابق الذى غررت به السياسة و الصحافة – حالته وكأنها حالة شخص أخر.

وحتى أخر لحظة كان قادراً على منحنا الصبر على فراقة .. لكننا قبل النهاية مباشرة .. وعندما وجدت الموت يغير ملامحة .. ويجعل منه شخصا أخر لا نعرفه بدأت اتحاشى النظر إليه .. كنت ادخل غرفته فى المستشفى لثوان ثم أجلس على بابه طوال الوقت .. وعندما رحل إلى العالم الآخر وضعت كل صورة وأوراقه الخاصة فى البوم خاص أصبح جزءاً من أيامى وتاريخى الشخصى والمهنى.

وربما لهذا السبب أنا مع ما تفعله سعاد حسنى .. إنها مريضة فى العمود الفقرى .. و تعانى من أثار شلل فى الوجه .. ويتناقض علاج شلل الوجه بالكورتيزون – الذى

يسبب زيادة فى الوزن ـ مع علاج عمودها الفقرى المدقوق بمسامير تسبب آلاماً صارخة لا يحتملها بشر.. وتمكث للشفاء فى لندن .. وتحلم بالعودة إلى مصر والوقوف أمام الكاميرا وتسجل ما تبقى من أشعار ورباعيات صلاح جاهين بصورتها.. ولكنها تريد أن تكون فى مدينة بعيدة .. حتى لو كانت وحيدة .. مدينة يندر أن يعرفها فيها أحد .. فهى تريد أن تتصرف بحريتها دون أن يقارن الناس بينها الآن وبينها على شاشة السينما .. بينها الآن .. وبين «زوزو» فى الفيلم الشهير الذى بدأ مشوار بقاء الأفلام لمدة سنوات فى السينما. أن سعاد حسنى نجمة لم تعرف السينما المصرية فنانة مثلها .. فهى وجه يمكن تصويره من جميع الزوايا .. وشخصية موهوبة تقدر على أداء كل الأدوار .. دور الفتاة البريئة والمتحررة فى الوقت نفسه والتى يحبها فى وقت واحد ثلاثة شبان على الأقل وهو الدور الذى بدأت به حياتها الفنية بعد أن قدمها الكاتب والفنان عبد الرحمن الخميسى فى فيلم «حسن ونعميه» وكان عمرها لا يزيد على ١٧ سنه .. ودور فتاة الطبقة الوسطى التى تحلم بالمجد ولا تقبل الأستسلام لظروف الواقع فى أفلام كثيرة أخفها ظلا «عائلة زيزى» .. ودور الفتاة المريضة نفسيا كما فى فيلم «بئر الحرمان» وهو دور لم تقدر ممثلة أخرى على تأديته بهذه البراعة الفائقة .. ودور أبنة الباشا القابض المسيطر والتى تعيش حياتها بالطول والعرض كما فى فيلم «غروب وشروق» .. وأدورارها الرومانسية الأخيرة كما فى «الحب الضائع» .. إنها كما وصفها الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين: «كوكتيل عبقرى يجمع بين أودرى هيبورن وفرح ديبا وفاتن حمامة» .. وقد اسعدتنا كثيراً .. فلماذا لا نتركها تعيش حياتها بالطريقة التى تريحها؟.

لماذا يطاردها على صفحات بعض الصحف الذين يعيشون على بيع الكلاب؟

لقد عانت سعاد حسنى منذ أول يوم فهمت فيه الحياة .. عانت متاعب عائلية وضعتها فى ظروف يسيطر عليها التمزق بين الأب والأم .. وعانت متاعب عاطفية وضعتها ظروف يسيطر عليها التمزق بين الحب والفن .. عانت متاعب فنية وضعتها فى ظروف يسيطر عليها التمزق بين المال والابداع .. وقد اختارت الابداع والخلود والبقاء فى ذاكرة الدنيا إلى يوم القيامة .. لكن فى الوقت الذى لم يعد فيه فن ولا ابداع وجدت ما جمعته من مال لا يكفى لعلاجها لشهور قليلة .. وتحمست الحكومة لعلاجها .. لكنها لم تواصل معها المشوار حتى نهايته ..

وفهمت أنها تحتاج لمجرد علاج طبيعى متوافر فى مصر وقررت التوقف عن علاجها فى مصر فقررت التوقف عن علاجها على نفقة الدولة .. وهو خطأ لا أتصور أن الدكتور عاطف عبيد يتحمله .. فمهما تكن التفاسير واللوائح فنحن أمام حالة خاصة جداً اسمها سعاد حسنى .. مهما قدمنا لها من مال لن نرد لها ولو جزءاً يسيرا مما قدمته لنا من فن ومتعة وشهرة رفعت اسم هذا الوطن عاليا.

أن سعاد حسنى التى تعرف معنى الخلود لا تريد أن تغير صورتها فى عيون الناس .. وهذا حقها .. تريد أن تكون بعيدة ولو لبعض الوقت.. وهذا حقها .. تريد أن تعالج فى لندن .. أو تبقى فيها .. وهذا حقها .. فلا تضعوها أمام مأزق حرج قد لاتحتمله .. فقد دفعت حياتها فى سبيل اسعادنا فاتركوها فى حالها تقرر ما تشاء .. وعلينا تنفيذ قرارها دون نقاش .. فالفنان شئ .. وخيل الحكومة التى تضرب بالرصاص فى نهاية خدمتها شئ آخر.

لقد نجحت فى أن أتصل بها عبر الهاتف وجاء صوتها دافئاً متميزاً وقادراً على الانفعال كما هو وقد عبرت عن حبها للبشر والحجر فى هذا الوطن بصورة ربما لم

تعد موجودة عند الذين أساءوا إليها .. وقد قالت إنها تعالج فى مصحة ريفية خارج لندن وأنها ستعود بعد شهرين.. وقد تمنيت ذلك.. لكن لو لم تعد هى حرة .. وواجبنا أن تكون مستورة ومستريحة سواء عادت إلى هنا أو بقيت هناك.. فهى فى البداية والنهاية .. سعاد حسنى .. سعاد حسنى.

أن النجم الذكى فى السياسة والفن والرياضة والحياة العامة هو الذى يعرف كيف يبزغ ؟ .. وكيف يزداد بريقاً؟ .. ومتى يقرر الاختفاء ليبقى فى أذهان الناس على النحو الذى يقرره فى هذه اللحظة ؟.. فلو كان مهما أن نعرف كيف نبدأ فالأكثر أهمية أن نعرف كيف ننتهى؟

١٨ السعد .. والوعد !

لم تعد قبعة «أشرف السعد» ـ أو عمامته ـ السحرية مكاناً تقفز منه الأرانب السمينة .. والعصافير الملونة والأوهام الكاذبة .. لأننا خلال عشر سنوات على نهاية خرافة «شركات توظيف الأموال» كبرنا ألف عام.. وسكنا قصوراً من رمال وكرتون وحبات مسابح سرعان ما غرقت عند أول موجة ماء أو طارت عند أول نفخة هواء .. فالأشياء الهشة سريعة العطب .. لا عمر لها .

فى لندن .. نجحت الصحفية والتليفزيونية اللامعة «هالة سرحان» فى إلقاء أوراقها ببراعة على طاولة «أشرف السعد» .. أول الهاربين وأشهرهم .. سجلت بالصوت والصورة اعترافات مذهلة قالها بنفسه قبل أن يتمكن هذه المرة من وضع طاقية الإخفاء على رأسه .. أو قبل أن يتبخر كالزئبق .. وهى اعترافات يجب ألا تمر دون أن نتوقف عندها.. ونفحصها .. ونستوعبها .. لأنها تروى سيرة حياة فساد من نوع خاص ملتحف بالدين .. ولأنها تؤكد أننا لا نقبل الحقيقة إلا بعد فوات الأوان.. وأن من يسعى إليها فى وقتها يرجم بالحجارة ويخرج من رحمة الناس الذين سيبكون دماً بدلاً من الدموع على ما سيجرى لهم فيما بعد، ولأننا نثبت أن

عقولنا أحياناً أقرب ما تكون للعقول الحديدية .. فهى لا تكبر.. ولا تتعلم .. وتكرر الخطأ نفسه مائة مرة .. وتلدغ من الجحر نفسه ألف مرة .

بنفسه قال «أشرف السعد»: إنه كان شاباً فقيراً .. لم يحصل على شهادة جامعية .. تخرج في معهد متوسط .. لم يؤهله لشئ .. وأن كل ما يعرفه عن الاقتصاد ـ الذى كان واحداً من حيتانه وأساطينه ـ تلقاه من جدته التى كانت تربى الدواجن وتجمع البيض وتبيعه .. وقد كان عاطلاً مثل آخرين غيره .. وفكر فى أن يبحث عن الرزق في الغربة مثل ملايين غيره .. فسافر إلى فرنسا ليلحق بأحد أقربائه هناك .. وفى باريس كان العمل شاقاً مؤلماً .. كان عليه أن يستيقظ والمدينة نائمة .. وأن يمشي في البرد وتحت المطر حتى سوق الخضار ـ القريب من أشهر مناطق البغاء فى حى «سانت دينيس» ـ فيحمل على كتفه وظهره ذبائح العجول و «الخنازير» .. وربما يجر عربات اليد التى تحمل صناديق الطماطم والأناناس .. وعندما يعود إلى حجرته منكهاً خائر القوى كان لا يجد أحياناً مكاناً لينام فيه .. فالحجرة الضيقة الخانقة يسكنها ثمانية أشخاص .. والنوم بالوردية .. والاستيقاظ يعنى الخروج للشارع فوراً لينام غيره .. إن باريس التى تصور أنها ستفتح ذراعيها له ـ بمجرد أن يهبط مطار «أورلى» ـ لم تعطه سوى فرصة أن يلحس عرق قدميها .. وأن يكون واحداً من ملايين «العبيد» القادمين إليها من خارجها .. ولم يكن أمامه ليحقق طموحه سوى أن يتاجر فى حبوب الهلوسة أو يعمل بلطجياً فى «كباريه» أو أن يعود إلى وطنه .. واختار العودة .. جمع ثمن تذكرة الطائرة .. وغادر باريس إلى القاهرة .. عاد إليها «يا مولاى كما خلقتنى» .

بنفسه قال «أشرف السعد»: إنه كان يحلم بنجومية الضوء .. كان يحلم أن يكون ممثلاً .. ونجماً .. ومن يراه على شاشة التليفزيون وهو يتكلم يدرك أنه موهوب بالفعل فى سرقة الكاميرا وشد الانتباه إليه .. وقد تقدم فى بداية حياته إلى معهد

السينما .. لكنه لم يكمل مشواره .. وإن استفاد من موهبته فيما بعد فى تقمص دور المتدين الورع الذى يطلق لحيته .. ويخفض صوته .. ولا يصافح النساء .. وقد حقق له هذا الدور الوحيد الذى لعبه فى الحياة ـ لا على خشبة المسرح ـ ما لم يحققه كل نجوم التمثيل من عزيزة أمير إلى يسرا .. ومن على الكسار إلى عادل إمام .. فعندما أوشكت مسرحية «توظيف الأموال» على الانتهاء كان يضع تحت يديه ما يزيد على المليارين من العملات الصعبة والسهلة.

بنفسه قال «أشرف السعد»: إنه كان لا يتصور نفسه متديناً .. بل إنه كان يعتبر التدين «نوعاً من التخلف» على حد قوله .. بل إنه أكثر من ذلك كان يتسكع فى الشوارع وأمام المقاهى ويشرب «البيرة» .. وينظر إلى الدنيا من أسفل إلى أسفل .. وقد كان يهاجم شقيقاته لأنهن كن يدعونه إلى الهداية .. ونبذ الحياة الضائعة التى يعيشها .. ولم يكن يستريح لذلك .. وإن بقى فى حاجة إليهن ليأكل ويشرب وينام .. وفى يوم دفع للصلاة فى أحد مساجد جماعة «التبليغ والدعوة» .. ولم يتردد فى السخرية من أنصار هذه الجماعة الذين كانوا ينخرطون فى البكاء كلما سمعوا كلمات خطيبها وزعيمها الروحى خاصة أنه على حد قوله لم يكن يفهم ما يسمعه .. وكان هذا الرجل الذى يفجر ينابيع الدمع فى عيون أتباعه قيادة بارزة فى الجهاز المركزى للمحاسبات «الحكومى».. كما أن مسجده كان فى ظهر بيت وزير الداخلية الأسبق النبوى إسماعيل.. ففى تلك الأيام من حكم الرئيس أنور السادات كان الدين سلاحاً للتخلص من خصوم النظام اليساريين والناصريين والشيوعيين.

بنفسه قال «أشرف السعد»: إنه ظل ضائعاً .. يائساً .. هائماً على وجهه .. لا يؤمن بفكرة .. ولا يحترم مبدأ .. ويعيش حياته بالطول والعرض .. ولا يعرف كيف يتعامل مع من حوله .. أو يتجانس معهم.. وفى لحظة وصل فيها العجز إلى مداه وجد نفسه فى المسجد الذى سخر فيه من زعيمه الروحى .. ولم يكد يسمعه

هذه المرة حتى وجد الدمع ينساب من عينيه .. وبقى حتى انصرف كل من فى المسجد .. ونجح فى الاقتراب من الرجل والتودد إليه .. ونجح فى أن يسليه ويضحكه على حد قوله .. إن مواهب الممثل المدفونة تحت جلده وجدت طريقها بصورة كوميدية وراء منبر «التبليغ والدعوة» .. ثم انتهت بالفجيعة على مسرح «توظيف الأموال» .. فقد بكى ملايين الناس وهم يرون الستار ينسدل والبطل مساق إلى السجن ومعه أحلامهم وأموالهم .. وفى مقابل التسلية وخفة الظل قدم له الزعيم الروحى فرصة عمل عند أحد أصدقائه الأثرياء .. لكن طموح الشاب القروى الواثق فى نفسه والقادم من «السنبلاوين» لم يكن ليرضى أن يكون موظفاً بأربعين جنيهاً فى الشهر .. كما أن ثمن الوظيفة كان غالياً .. وهو أن يظل يؤدى دور الشاب الورع ودور المهرج معاً .. أن يكون فى خدمة الزعيم الروحى للجماعة ليل نهار .. أن يظل باقياً فى الكواليس .. مثله مثل ملايين الكومبارس الذين نصطدم بهم كل يوم ولا نعيرهم انتباهاً .

بنفسه قال «أشرف السعد» : إنه حتى هذه اللحظة لم يكن قد قرأ المصحف .. ولم يكن قد قرأ كتاباً واحداً من كتب التفسير .. لم يكن يعرف عن الدين سوى ما يعرفه العامة من أفكار شائعة وأحياناً خاطئة .. لكنه بمجرد أن اقترب من زعيمه الروحى حتى تصور نفسه المؤمن الوحيد الذى يعرف الطريق الصحيح إلى الله .. وجد نفسه فجأة يحتكر الحقيقة .. ويصادرها لنفسه .. ويحرم الآخرين منها .. لكنه سرعان ما أدرك أن الطريق الذى اختاره سيؤدى به إلى حياة الزهد والتقشف التى لا يريدها .. ولم يتردد فى أن يلعب على الوجه الآخر .. وكانت اللعبة مثيرة .. ومغرية .. ومجدية .. ومثمرة .

بنفسه قال أشرف السعد: أنه بدأ مشوار المليون جنيه الأولى بغسيل السيارات فى إحدى ساحات عرضها .. كان يتقاضى ١٠ جنيهات عن كل سيارة تباع .. وكان

بارعاً فى تحقيق مكاسب سريعة من بيع السيارات القديمة .. ووضع القرش على القرش .. والجنيه على الجنيه.. وراح ينتظر الملايين .. لكن الملايين لا تولد ولا تتكاثر بهذه الطريقة.. لابد من خشبة طافية تحمله مستريحاً إلى عالم الأثرياء دون أن يبلل قدميه فى ماء المعاناة ودون أن يبلل عينيه بمياه الحزن .. ووجد مصباحه السحرى فى تجارة «العملة» .. كانت السياسة المالية قد اخترعت ما يسمى الاستيراد دون تحويل عملة .. وكانت ترجمة هذه السياسة هى أن تغلق أبواب البنوك فى وجوه المستوردين ووكلاء الشركات الأجنبية وتفتح أبواب السوق السوداء أمامهم .. وكان قد سبقه إلى تجارة العملة فتحى وأحمد الريان اللذان بدآها فى المساجد ونقلاها إلى البنوك فيما بعد .. وهكذا .. أصيب الدولار بالجنون والتهور .. وراح الجنيه ينكمش ويصاب بالأنيميا .. ووجد الشاب الريفى الطموح أن الفرصة قد جاءت إليه على طبق من فضة .. كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يغمض عينيه ويقرأ الفاتحة ويمسح وجهه بعدها ثم يمد يده ويقوم بتغيير العملات .. لكنه .. قبل ذلك تعلم أصول الحرفة من أحد أصدقائه كان يقف عند مطعم شهير فى حى «الدقى» .. طلب منه هذا «الخبير» أن يدفع له ألف جنيه لتشغيلها فى السوق على أن يدفع له ربحاً صافياً خالياً من الضرائب ٩٠ جنيهاً شهرياً .. أى أن ما يتقاضاه من البنك فى سنة يتقاضاه من تجارة العملة فى شهر .. وراح «أشرف السعد» يجمع الألف جنيه من ذهب شقيقاته .. وبقايا مدخراته المتواضعة فى دفتر توفير .. ودفع الألف جنيه لصديقه .. لكنه لم يكتف بانتظار العائد الشهرى وإنما راح يلازمه كظله ليعرف منه سر الصنعة .. ليعرف منه كيفية تنفيذ العمليات السرية بسرعة وخفة ورشاقة وقبل أن تنقض الشرطة عليه .

بنفسه قال «أشرف السعد»: أنه وجد تجارة العملة مثل مغارة «على بابا» .. ذهب وياقوت ومرجان بلا حساب .. خاصة عندما توحى للناس أن السماء لا تعارضها .. بل وتدعمها بالبركة .. وتنميها بالتقوى.. وتغيرت حياته تماماً .. أصبحت شهية

كالعسل .. صافية كالألماس .. مريحة كوسادة ريش النعام .. لم يعد يمسح السيارات مقابل عشرة جنيهات .. لم يعد يمشى على قدميه بحثاً عن لقمة عيش .. لم يعد يمد يده لأحد .. لم يعد يرتدى ملابس الجينز .. أصبح يركب المرسيدس .. ويأكل ما يشتهى .. ويتمدد مثل «هارون الرشيد» .. إن البعض يتاجرون فى الدين فلماذا لا يجد لنفسه مكاناً فى الطابور؟ .. ثم لماذا لا يشترى الطابور؟ .

بنفسه قال «أشرف السعد»: إنه استثمر مدخرات المصريين العاملين فى الخارج.. واستثمر الغطاء الدينى الذى تكون بعد الانقلاب على الفكر القومى .. وهو الغطاء الذى حرم التعامل مع البنوك .. واعتبرها رجساً من عمل الشيطان .. ولعب هذا الدور صحفيون وكتاب وسياسيون سخروا حياتهم لهذه المهمة التى لم تكن لوجه الله وإنما كانت ركوباً لموجة ثراء جديدة .. لقد مهدوا الأرض وسخروا العقول بأفكارهم .. وأصبحت البيئة مناسبة لقيام شركات توظيف الأموال .. واندفع الناس إليها وكأنهم قد وجدوا ضالتهم المنشودة بعد قرون من الصبر والمعاناة والانتظار .. أخيراً جاء إليهم المسيح المنتظر الذى سيشفى المرضى ويحيى الموتى ويحقق العدل والرخاء .. وفى شهور معدودة كان «أشرف السعد» يكسب مليون جنيه فى اليوم .. وفى شهور خاطفة كان تحت يديه ودائع وأموال تتجاوز الألفى مليون جنيه .. وراح الناس فى كل مكان يقفون على أبوابه بالطابور الذى كان يبدأ قبل صلاة الفجر ولا ينتهى إلا بعد صلاة العشاء .. ووصل عدد فروعه فى محافظات مصر إلى ٨٠ فرعاً .. وكان كل من يطرق بابه يبكى بحرقة .. ويكاد يلثم الأرض بين قدميه حتى يقبل مدخراته .. وكان «أشرف السعد» يتنازل ويقبلها .. مؤكداً أن ثوابه الذى ينتظره ليس فى الدنيا وإنما فى الآخرة عند الله .

بنفسه قال «أشرف السعد»: إنه فهم اللعبة بسرعة مذهلة .. فمظهر الشاب الورع المتدين لا يكفى فى دولة بيروقراطية عريقة فى التعقيدات والقرارات .. لابد من

اختراق البيروقراطية من داخلها .. لابد من إيجاد طابور خامس من كبار الموظفين الحاليين والسابقين ليصبحوا مثل «حصان طروادة» .. يخرجون من بطنه لإنقاذه في الوقت المناسب.. وهكذا .. وجد في خدمته صحفيين وكتاب أعمدة وضباط شرطة ووزراء.. بل ورئيس وزراء سابق أيضاً .. على أن كل هؤلاء في كوم.. والمسئول الكبير السابق بجهاز المدعى العام الاشتراكى كوم آخر .. إن الذهول سيكون من نصيب كل من يسمع واقعة مزرعة هذا المسئول .. والتى أكدها - فى نفس البرنامج التليفزيونى الجرئ الذى قدمته «هالة سرحان» - أحد العاملين بالجهاز فى ذلك الوقت وهو المستشار «حسنى عبد الحميد» .. لقد وجد «أشرف السعد» هذا المسئول يعرض عليه شراء مزرعة يمتلكها .. وحدد بنفسه الثمن .. عشرة ملايين جنيه .. ولم يجد «أشرف السعد» الذى كان رهن التحقيق فى جهاز المدعى العام الاشتراكى سوى أن يقول: «أليس السعر قليلاً؟» .. ولم يفهم المسئول الأسبق السخرية.. ووقع عقد البيع .. وتسلم شيكاً بالمبلغ الذى حدده .. ولكن .. تسرب الواقعة إلى الصحافة وتدخل الدولة جعله يتراجع عن البيع .. ويعيد الشيك إلى صاحبه .. وفيما بعد .. بعد أن ترك المسئول منصبه عاد ليعرض المزرعة على «أشرف السعد» من جديد .. ولم يكن أمامه سوى أن يقبل بالسعر الطبيعى .. وكان ٤ ملايين جنيه .. أى أن هناك ٦ ملايين جنيه كان يطالب بها بحكم منصبه .. واستغلالاً لنفوذه .. ولعل ذلك ما جعل المستشار حسنى عبد الحميد - وهو بطل من أبطال مواجهة الفساد المشهود لهم بالكفاءة والنزاهة - يقول فى هدوء وثقة واطمئنان: «إن الفساد فى داخل الجهاز كان أشد منه خارجه» .

وبنفسه قال «أشرف السعد»: أن وزيراً أسبق للاقتصاد كان مستشاراً لإحدى شركاته .. وإن الصراع الذى كان بين هذا الوزير الأسبق وبين رئيس مجلس الشعب السابق الدكتور «رفعت المحجوب» أدى إلى محاولة استخدام «أشرف السعد» فى تصفية الحسابات بين هؤلاء الكبار .. ولم يكن من الممكن أن يخرج سالماً فى

معركة وجد نفسه فيها بين ديناصورات شرسة وحيتان هائجة .. وتدخلت النيابة .. وبدأت صورة المستثمر المتدين الورع تهتز فى عيون البعض .. وكان ذلك بداية العد التنازلى .

وبنفسه قال «أشرف السعد» : إنه كان صياداً للثروات .. كان يطارد المشروعات العاجزة عن النهوض ويشتريها بتراب الفلوس .. ويترك ٢٠ ٪ لأصحابها .. ويمنحهم ٢٠ ٪ أخرى مقابل إدارتها .. أى أنه كان يتنازل عن ٤٠ ٪ من الأرباح حتى يحافظ على سلامة هذه المشروعات وحسن إدارتها .. ولكن .. يبقى السؤال القديم المزمن: كيف يترك ٤٠ ٪ من الأرباح وفى الوقت نفسه يوزع ٢٤ ٪ على المودعين؟ .. بخلاف مرتبات العاملين فى شركات تلقى الأموال .. وبخلاف الدعاية وكشوف البركة؟ .. وأى مشروع يحقق هذا العائد الذى يتجاوز طبقاً لهذه الحسابات أكثر من ٨٠ ٪ من رأسماله؟.

وبنفسه قال «أشرف السعد» : إنه عرف بقرار التحفظ عليه قبل أيام من صدوره .. ولذلك لم يكن غريباً أن يكون فى باريس وقوات الأمن تداهمه .. ولم يكن هناك مفر من العودة .. ووجد نفسه فى السجن بعد أن انتقلت علاقة البيروقراطية بشركات توظيف الأموال من التدليل إلى العقاب الصارم .. وفور أن خرج من السجن .. وجد طريقه إلى الخارج .. وأصبح أشهر الهاربين فى طابور طويل .

إننى لا أفتح جراحاً قديمة تصورنا أنها ذبلت وجفت .. ولا أثير مشاعر وأحزاناً مؤلمة تصورنا أن الزمن أخفاها وخطفها بعيداً عنا .. ولكنى أعيد رواية قصة على لسان صاحبها نسمعها منه لأول مرة حتى لو تأخرت نحو عشر سنوات .. فمن حق الناس أن يعرفوا ما جرى ولو بعد فوات الأوان .. ومن حق الناس أن يستفيدوا مما جرى حتى لا يتكرر.. فهل سنستفيد منه؟ .. أم أننا سنكرر ما جرى بالتهور نفسه وبالحماس .. نفسه وندفع الثمن نفسه؟ .

الفهـــرس

الصفحة





عشاق وقتلة فى حياتى!

كارلوس .. أم كلثوم .. نيلسون مانديلا .. عزيز نيسين
محمد الفايد .. تحية كاريوكا .. محمود درويش
نزار قبانى .. يفجينى بريماكوف .. سعاد حسنى
يوسف أدريس .. أحلام مستغانمى .. أسامة
عبد العزيز بوتفليقة .. هؤلاء .. ب
حياتى أحياناً وهم يحملون قنبلة ..
يحملون قرنفلة .. لذلك فهم ن

عادل حمودة